الجزء الأول

oeikandl.com

obeikandl.com

الجزء الأول

روي الإمام البخاري عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه علي الرحل قال:«يا معاذ»، ، قال لبيك يارسول الله وسعديك قال: «يا معاذ» ، قال: لبيك يارسول الله وسعديك ، ثلاثا . قال : «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله علي النار»، قال يا رسول الله، أفلا أخبر به الناس فيستبشرون؟ قال: «إذاً يتكلوا» وأخبرها معاذ عند موته تأثما[1].

وبين ابن حجر العسقلاني في شرح الحديث أن معاذا ﷺ كان رديف النبي ﷺ أي راكباً خلفه علي حمار ، وقوله صدقا شهادة باللفظ وتصديق بالقلب ، وأن يتحقق ما أورده قولا بما تحراه فعلا ، وبين بالأدلة القطعية عند أهل السنة أن عصاة المؤمنين يعذبون ثم يخرجون من النار بالشفاعة ، وقوله «إذاً يتكلوا» أي يمتنعوا من العمل اعتماداً علي ما يتبادر من ظاهر الحديث ، وقوله ثأثماً أي خشية الوقوع في الإثم .... وأتبع الفتح هذا الحديث بحديث آخر قال :

حدثنا معتمر قال : سمعت أبي قال : ذكر لي أن النبي ﷺ قال لمعاذ : من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، قال ألا أبشر الناس ؟ قال لا إني أخاف أن يتكلوا .. فبين أنه من لقي الأجل الذي قدره الله، ويعني الموت ويحتمل أن يكون البعث ، أو رؤية الله تعالي في الآخرة . هكذا قال ـ فمات علي الإيمان موحدا لا يشرك بالله شيئا جعله الله في الجنة[2].

وروي الإمام البخاري عن قتادة عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال : يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير .

ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير .

---

(١) فتح الباري ١/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠ .

(٢) فتح الباري ١ / ٣٨١ .

حدثنا قتادة ـ حدثنا أنس عن النبي ﷺ «من إيمان» مكان «من خير» وفيه دليل على اشتراط النطق بالتوحيد ـ فمن أقر بالتوحيد وصدق فالإقرار لابد منه ـ ولهذا أعاده في كل مرة[١].

وروي البخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال : يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقول الله تعالى أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فيخرجون منها قد أسودوا فيلقون في نهر الحيا أو الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل ، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية .

قال وهيب حدثنا عمرو الحياة وقال خردل من خير[٢].

أولاً : الميراث لله وحده

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر].

كل شيء فى هذه الدنيا إلي انتهاء ، وكل حي فيها صائر إلي فناء .... جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون ،، ومع الموت تستوي الأقدام ، ويبقي الله وحده بوجوده وذاته ، ووجهه الكريم الموصوف بالبقاء والدوام الحي الذي لا يموت .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن].

السماوات وما فيها ، والأرض وما فيها ، كل ما على الأرض ومن عليها عائد إليه هو صاحبها كلها ، والخالق لها ، والمالك المتصرف فيها ـ البقاء له وحده والدوام له وحده ، والحكم له وحده .

له الخلق والأمر والسلطان والقهر ، يحكم بأمره في خلقه ماشاء كيف شاء لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه ... من عاش من خلقه فعليه رزقه ومن مات فإليه مصيره وبين يديه سبحانه وتعالى حسابه .

الخلق كلهم يموتون ويورثون ،، يرثون مالم يكن لهم ملكية فيه ثم يموتون فيورثون .... يأخذونه ، ويتركوه لغيرهم ، فيأخذونه ويتركونه .

---

(١) (والذرة معناها أقل الأشياء الموزونة) [فتح البارى ١ / ١٩٦].

(٢) كتاب الرقاق عن موسى بن اسماعيل ـ أخرجه البخاري عن اسماعيل بن مالك ، أخرجه مسلم فى الإيمان عن هارون بن وهب بن مالك ... والمثقال كالمقدار لفظاً ومعنى ، ويقع الوزن على قدر أجور العمال ، وما ثبت من أمور الآخرة بالشرع لا دخل للعقل فيه (فتح الباري ١ / ١٥٢).

أموالنا لذوي الميراث نجمعها ** ودورنا لخراب الدهر نبنيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها ** إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه ** وإن بناها بشر خاب من فيها

قال الحق تبارك وتعالى :

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [العنكبوت] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران] .

تلك هي الحقيقة التي لا جدال فيها ، فلا تهلك نفسك بنفسك بالبعد عن الله وعن نصرة دين الله .... واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عليك ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه ، «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله »[1] .

قال أهل العلم والمعرفة : المعصية ميراثها الفقر والمرض وسقوط منزلتك من عيون الناس .. لا تورث إلا الذل والهوان وكثرة الهموم والأحزان ، وحرمان البركة من الرزق والتعرض لغضب الرحمن، بينما تجد في الطاعة لله العز والغني والكرامة وميراث الرضا والقناعة والتذوق لحلاوة الإيمان .

وقالوا : وأهل المعاصي ترى في وجوههم الكآبة ، وعلي وجوههم الغضب فإن جاءتهم نعمة من الله كانت لهم استدراجاً ، والطائعون يوفقهم الله لشكرها ويبارك لهم في أرزاقهم وأولادهم، فإذا ما أصابتهم بلية كانت كفارة لذنوبهم، وزيادة في درجاتهم ، ومتى اقترنت بالصبر كانت نعمة من الله لهم .

وقالوا : فمن فرح قلبه لشيء من الدنيا فقد أخطأ لحكمه ، ومن جعل شهوته تحت قدميه فرق الشيطان من ظله ، ومن أصبح وهو يشكو ضيق المعاش فكأنما يشكو ربه ومن أصبح لأمور الدنيا حزينا فقد أصبح ساخطا على الله ، ومن أحسن سريرته أحسن الله علانيته ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس .... ومن نعيم الدنيا يكفيك الإسلام نعمة،ومن الشغل تكفيك الطاعة شغلا، ومن العبرة يكفيك الموت عبرة ، ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دينه ودنياه .. وقل كما كان رسولنا العظيم ﷺ

---

(١) من حديث رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما .

يقول : « اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت» (١) .

وتأهب للذي لابد منه ... فإن الموت ميقات العباد

أترضى أن تكون رفيق قوم ... لهم زاد وأنت بغير زاد

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء] .

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص] .

الميراث كله يعود إلى الله ، كل ما في الكون من أموال ومنافع وأرض وبحار وشموس وأقمار ، وأنهار وأشجار، المال والأرض والملك كله لله الوارث الوحيد فكل شيء تحت قهره وقدرته ومشيئته .

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم] .

٢ ـ التمكين في الأرض والنهي عن الفساد والإفساد .

لقد أورث الله الناس الأرض ليعمروها ، ويذهبوا في كل أرجائها كما يشاءون لطلب المكاسب والتجارات وتوفير أسباب العيش والتمكين فيها

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف] .

سخر لهم الأرض ساكنة بجبالها لا تضطرب ، وسلك لهم فيها السبل ، وأنبع لهم فيها العيون ، ومكنهم من الزرع والغرس فيها ، ويسر لهم الرزق بكل ما أودعه فيها من أسباب ومكونات حتى ينتهي الأمر إليه بالأجل المحدود في علمه سبحانه وتدبيره قال تعالى :

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك].

ووضع سبحانه وتعالى للناس مقومات حياتهم بمنهج الله الذي لا تصلح الدنيا إلا بإتباعه ، الشرائع فيه متفقة مع كل الأماكن والأزمان ، وقدرت بإحكام لسعادة الإنسان .

---

(١) الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد زاد بعض الرواه « ولا حول ولا قوة إلا بالله» متفق عليه - رياض الصالحين للنووى رقم ١٤٧٨ .

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى].

ونهي سبحانه وتعالى عن الفساد في الأرض، وأمر عباده بدعائه والتضرع إليه، والتذلل لديه خوفا مما عنده من وبيل العقاب، وطمعا فيما عنده من جزيل الثواب قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف].

٣ ـ التوكل على الله والتفويض إليه.

وأمرهم سبحانه وتعالي بالتوكل عليه، والثقة به، والتفويض إليه، والتسليم له، والشكر على نعمه فهو الحي الدائم والخبير بذنوب خلقه لا يخفي عليه شيء منها.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان].

وبالله يثق المؤمنون، وما لنا لا نثق وقد هدانا سبحانه وتعالي إلي طريقه المستقيم، وبصرنا النجاة من عذابه. قال تعالى:

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم].

وامتن الله على رسوله ﷺ والمؤمنين بالرحمة،وبحسن خلق رسول الله ﷺ واللين الذي في قلبه ﷺ. أمره الله سبحانه أن يتجاوز ويصفح عن أصحابه، ويدعو لهم بالمغفرة، ويتشاور معهم فيما يحدث من الأمور، تعليماً لآمته بأن لا يستبد أحد برأيه، وتطييباً لقلوبهم ـ وإذا صح أمر رسول الله وعزمه عليه فليتوكل علي الله بالاستسلام لحكمه والرضي بقضائه قال سبحانه وتعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران].

وقد أمر الله الناس بالتأسي بالنبي ﷺ في صبره ومثابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظار الفرج من ربه كما حدث يوم الأحزاب إذ كان الابتلاء والاختبار من الله فأعقبه النصر من

عند الله وصدق الله في وعده ورسوله فيما بشر به من فرج الله وما زاد اجتماع الأحزاب على المؤمنين إلا إيمانا وتسليما بقضاء الله وأمره قال تعالى :

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب] .

قال السدى : ولما تجهز النبي ﷺ وأصحابه للمسير إلي بدر الصغرى لميعاد أبي سفيان. قال المنافقون لقد جمع لكم جموعا كثيرة فاخشوهم وخافوهم واحذروهم . فإنه لا طاقة لكم بهم فما زاد قولهم المؤمنين إلا تصديقاً ويقينا في دينهم وقالوا يكفينا الله ونعم المولي لمن وليه وكفله [١].

وكأني أقول لأمة الإسلام إيمانكم بالله أقوي من حشود الدبابات والطائرات فعودوا إلي سلفكم وصحابة رسولكم ﷺ وأعيدوا لأمتكم مجد الأولين قال تعالى :

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما حسبنا الله ونعم الوكيل قالها رسول الله ﷺ وقالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار [٢].

ونحن الآن نقولها من مشاهدة ما نراه من تذبيح المسلمين وقتلهم والاستهزاء بنبيهم ﷺ حيث بلغت السفالة برسمه مادة للكاريكاتير في مجلاتهم وصحفهم ومادة للكتابة عنه والتأليف في رسائلهم وكتبهم لعنهم الله .. كأنه مؤلف من مؤلفاتهم: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق] .

وإذا خضعت قلوب المؤمنين لذكر الله والخوف من الله ، وصدقوا بآيات الله وأيقنوا بها وإنها من عند الله ازدادوا إيمانا بالله واعتمادا على الله لا يرجون غيره ولا يرهبون سواه :

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال] .

---

(١) القرطبي ٢/ ١٦٢٢ .

(٢) البخاري عن أحمد بن يونس عن أبي بكر عن أبي حصين عن أبي الضحى عن ابن عباس (ابن كثير ١/ ٤٣٠) .

روى الترمذي والنسائي وابن ماجه عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « لو أنكم تتوكلون علي الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا »[١].

وحقيقة التوكل علي الله في مشاهدة قدرته والتفويض إليه والتسليم لأمره والصبر علي بلائه ، والرضا بقضائه ـ والمؤمن يستمد عزته من عزة الله وقوته من قوة الله وتتحقق كرامته وحريته وأمنه في طاعة الله تبارك وتعالي ، لا إله غيره ولا رب سواه.

٤ ـ النكران لنعم الله عصيان مردّة الخسران والحرمان .

ولم يحرم الله تبارك وتعالى الناس في حياتهم ميراث النعم والخير والبركات أعطاهم بلا حدود ولا قيود من رزق الأرض والسماوات ، أعطاهم فوق ذلك الصحة والعافية ، ومنحهم بعظمة قدرته السمع والبصر والفؤاد وذلل للإنسان جوارحه تطيعه فيما أراد ، وكرمه الله أفضل تكريم ، وسخر له الأرض ينتفع بما في باطنها من المعادن والكنوز والخيرات ، وما عليها من الزروع والثمار والبحار والأنهار والأشجار ، وسخر له ما في الأرض جميعاً ، السماء بمائها والأرض بخيراتها والأنعام بمنافعها والبحار بحليها وأسماكها ولؤلؤها ومرجانها، لم يحرم سبحانه الناس من الخير والنعم ،، ولكنها طبيعة الإنسان ألف هذه النعم ولا يشعر بها إلا حين يفتقدها ،،

ولو طالب الله الناس بشكر جميع نعمه لعجزوا عن القيام بذلك ، وما تكفي أعمال المرء في حساب الله له إلا برحمة منه سبحانه يضاعف بها الحسنات ويتجاوز بها عن السيئات ، وإلا كم تساوي نعمة واحدة من نعم الله كنعمة البصر ؟ لا يملك أحد أن يوفي حق الشكر لله فيها .. فنعم الله كثيرة لا تحصي ولا تعد ..

قال الحق تبارك وتعالي : ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم] .

قال طلق بن حبيب رحمه الله إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين[٢].

---

(١) (رياض الصالحين للنووي) ، ٤/ ٣٩٨ ابن كثير ومعناها تذهب أول النهار خماصا أي ضامرة البطون من الجوع ، وترجع آخر النهار بطانا أي ممتلئة بالبطون .

(١) (ابن كثير ٢ / ٥٤٠) .

ونعم الله مطلقة فوق كثرتها فلا يحيط بها إدراك أي إنسان ـ وكفران النعم عصيان بل ومبارزة لله بالعصيان .

وينسى الناس نعم الله عليهم لطول ما ألفوا السهولة والإستقرار واستغلالهم لتربة الأرض ومائها وهوائها وكنوزها الحافلة بالنفائس الكريمة فيفسدون بأهوائهم وأفكارهم ما أصلحه الله لهم بحجة التطور وإرتقاء الحضارات .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢) ﴾ [البقرة] .

وما كان ينبغي للإنسان الذي كرمه الله وأحسن خلقه أن ينسي خالقه ويقابل الكريم بكفران نعمه ونسيان شكرها .

وأن رحمة الله للذين يتبعون أوامر الله ، ويتركون معاصيه ، ويزدجرون بزواجره، ويلتزمون بمنهجه ، ويسلكون طريقه ، ويعملون بشرعه وشريعته .

قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) ﴾ [الأعراف] .

وقد بين الله في كتابه الكريم حال هؤلاء الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، وقادوا قومهم إلى جهنم ـ فقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) ﴾ [إبراهيم] .

ويضرب الله سبحانه وتعالي الأمثال :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل] .

وكانت مكة آمنة مطمئنة ومستقرة ، فقد جعلها الله بلدا حراما من دخله كان آمنا مطمئنا ، فهي بجوار بيت الله الحرام وعمارة مسجده وفي حمايته ، وكان رزق أهلها يأتيهم بسخاء مع القوافل الآمنة والحجيج من البر والبحر استجابة من الله تبارك وتعالي لدعوة الخليل إبراهيم عليه السلام .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) ﴾ [البقرة] .

obeikandi.com

وكان الأعراب يتخطفون من حول البيت يقتلون بعضهم بعضا ، وينهبون بعضهم بعضا ، ويسبون بعضهم بعضا ... وأهل مكة آمنون . قال تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [العنكبوت] .

فكان شكرهم بالشرك والجحود والعصيان ،،، فلما كذبوا رسول الله ﷺ دعا عليهم وقال: « اللهم أشدد وطأتك علي مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف » ، فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام ، وأصابتهم سنة أذهبت كلي شيء لهم حتى أكلوا العلهز[1] . وبُدلوا بأمنهم خوفا من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلي المدينة . ذلك من سطوته وسراياه وجيوشه التي أمده الله بها[2] .

هذا حال القرية التي كفرت بأنعم الله مثلا لكل قوم أنعم الله تعالى عليهم فأبطرتهم النعمة ففعلوا ما فعلوا ،، لقد كانت في أمن من الفتن الخارجية لا ينزل بها ما يوجب الخوف كإغارة الأعداء عليها ، وكانت مطمئنة ساكنة قارة لا يحدث فيها ما يوجب الإنزعاج كالفتن الداخلية بين أهلها ، رزق أهلها مضمون لايساوره قلق أو أذى وأمنهم موفور لا يساوره شك فقابلوا نعم الله بالكفر والعصيان بدلاً من الشكر والطاعة والعرفان ـ فبدل الله تعالي بنعمتهم نقمة وعاجلهم سبحانه وتعالي بالعقوبة جزاء ما صنعوه من كفران النعم ، والخروج عن حكمة العقل ـ وأصابهم دعاء رسول الله ﷺ .

قال أهل العلم والمعرفة : وإن العبد قد يضيق عليه رزقه بذنوبه وقد تسقط منزلته من القلوب فيصير ثقيلاً مرذولا ، ويستولى الضعف عليه ويستولى أعداؤه عليه ، وكما بينا قبل ما تورثه المعصية من الفقر والمرض وسقوط المنزلة من عيون الناس إذ أنها لا تورث إلا الذل والهوان وكثرة الهموم والأحزان ، وحرمان البركة من الرزق والتعرض لغضب الرحمن ، بينما كان العز والغني في الطاعة ، والكرامة في الرضا والقناعة ... ومن المستحيل أن يستوي أهل الطاعة والإيمان بأهل الهوى والعصيان .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [النحل].

---

(١) (وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه - ابن كثير ٢/ ٥٨٩) والحديث أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٠٦، وأحمد في مسنده من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٢) (ابن كثير ٢/ ٥٨٩) / الطبري ١/ ٤٦٧ .

وأهل سبأ في جنوب اليمن كانت لهم الأرض الخصبة بالوفرة والرخاء ، وكان لهم سد يتحكم في مياه الأمطار رزق السماوات والأرض بعناية الله لهم ، ولم يكن في بلادهم شيء من الهوام «البعوض والذباب والبراغيث والقمل و العقارب والحيتان» لاعتدال الهواء برحمة الله لهم ، ونعمته عليهم .

أمرهم الله أن يستمتعوا بهذا الرزق شاكرين لله ـ فقال سبحانه وتعالى :

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ] .

ولكنهم لم يشكروا ، ولم يذكروا ، وأعرضوا عن توحيد الله وعبادته ، وعدلوا إلي عبادة الشمس من دون الله ، كما قال الهدهد لسليمان عليه السلام في قول الله تعالى : ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل] .

حسّن لهم إبليس عبادتهم للشمس يسجدون لها فمنعهم بذلك أن يتبعوا دين الله الحق، فهم لا يهتدون له ولا يسلكونه ، والهدهد يتعجب من هؤلاء الذين يسجدون للشمس ولا يسجدون لله الخالق العظيم الذي يعلم الخفايا ويعلم كل خبيئة في السماوات والأرض ، ويستنكر عليهم شكرهم ومخالفتهم لقضية العقيدة والإيمان التي علمها الهدهد وعرف أن العبادة لا تكون إلا لله الحق وإنها لموعظة بليغة من واعظ متمكن عن الله يقول لنبي الله : ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النمل] .

سبحان الله في خلقه فقد فهم الهدهد وأدرك مالا يبصر به كثير من العقلاء الذين ميزهم الله بالعقل في خلق البشر .

فلما أعرض أهل سبأ عن التوحيد وأبطرتهم النعم سلبها الله تعالى منهم وحقت عليهم كلمة الله وحرمهم الله من جنة البساتين والأشجار والثمار بأجناسها وألوانها وطعومها وروائحها وأزهارها وما جمع سبحانه لهم بين مغفرة ذنوبهم ،وطيب بلدهم ، ولم يجمع ذلك لجميع خلقه،وأمتن عليهم بعفوه من عذاب الاستئصال بتكذيب من كذبوه من سالف الأنبياء إلي أن استداموا الإصرار فاستؤصلوا [١] .

---

(١) (القرطبي ٨ / ٥٥٥٣) .

قال تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [سبأ] .

أي لما أعرضت سبأ عن طاعة ربها وصدت عن إتباع رسلها ثقبنا سدهم الذي كان يحبس عنهم السيول فخرب ما أمامه ، وجعلنا لهم مكان بساتينهم من الفواكه والثمار بساتين من ثمر الأراك ومن شجر الطرفاء، وقليل من السدر مكافأة لهم على كفرهم[1] ،،

وهل يجازي الله إلا الكافر لنعمه ،، الجاحد لفضله ؟ قال سبحانه وتعالى :

﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سبأ] .

فلما ظلموا أنفسهم بما عملوا من معاصي الله صيرهم الله أحاديث يضرب بهم المثل فيقال « تفرقوا أيدي سبأ » وقطعهم سبحانه كل مقطع للعظة والدلالة على حق الله على عبده من الشكر والصبر[2] .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [سبأ] .

٥ـ جذور الفساد في قلوب المكابرين .

.... وللفساد في الأرض جذور عميقة وأصيلة في قلوب المكابرين المعاندين والمتجبرين والمشركين ، والذين أبطرتهم نعم الله فهم بها كافرين وتمتد هذه الجذور إلى بني آدم حينما اعتدى قابيل على أخيه هابيل فزينت له نفسه وحسنت له قتل أخيه فقتله فأصبح من جملة الخاسرين .

قال سبحانه:﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المائدة] .

« وهذا نمرود بن كنعان أول ملك جبار في الأرض خاصم إبراهيم عليه السلام وجادله في ربه حين قال إبراهيم ربي الذي بيده الحياة والموت يحيى من يشاء ويميت من يشاء قال : أنا أفعل ذلك فأحيي وأميت ، قال مجاهد أتي برجلين فقتل أحدهما وترك الآخر وقال هذا أمتهُ وهذا أحييته[3] ، وهذه سفاهة وحماقة من النمرود ومغالطة كبيرة ، فإن الإحياء

---

(١) السدر وهو شجر النبق أو السواك ولم يعد لهم منه إلا القليل - وقوله (واثل) شجر يشبه الطرفاء وقيل هو السمر والله أعلم (ابن كثير ٣/ ٥٣٢) .

(٢) (م الطبري ٢ / ٢٢١) .

(٣) م الطبري ١/ ٨٢ .

والإماتة خلق الحياة في المعدوم وإخراجه إلي الوجود ، لا العفو عن إنسان وإعدام آخر ! وطلب منه إبراهيم عليه السلام أن يأتي بالشمس من مغربها إن كان يدعي الألوهية فانقطع وبطلت حجته » .

﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة] .

أو كالذي مر علي بيت المقدس بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها فهي خاوية علي عروشها ليس فيها أحد وقد سقطت سقوفها وجدرانها واشتد خرابها فقال مستنكرا إحياءها بعد أن تخربت[1] .

﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ﴾ [البقرة:٢٥٩] وأراه الله تعالى في نفسه آية خارقة ، فطعامه لم يتغير منه شيء ولا شرابه .

﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة] .

وقيل فى التفاسير أنه لما بعثه الله بعد موته كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه ، وأن القرية التي كانت خاوية عمرت وتكامل سكانها وتراجع بنو إسرائيل[2] .

والملك الغاشم الذي كان يغتصب كل سفينة صحيحة فخرق الخضر سفينة المساكين الذين لم يكن لهم شيء لينتفعوا به غيرها وقيل: إنهم أيتام[3] ، قال تعالى : ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف] .

وهذا بلعم بن باعوراء وكان رجلاً في بني إسرائيل أعطاه الله العلم والحكمة فمال إلى الدنيا وخلد إلى نعيمها ، وباع دينه بعرض من الدنيا قليل وهو مثلٌ لعلماء السّوء الذين

---

(١) م الطبري ١/ ٨٢ -ابن كثير ١/ ٣١٤ .

(٢) ابن كثير ١/ ٣١٤ .

(٣) وقد روى أن هذا الملك هو (هدد بن بدد) وفى رواية للبخاري انه مذكور فى التوراة وهو من الملوك المنصوص عليهم في التوراة والله اعلم (بن كثير ٣/ ٩٨).

يسايرون أهواء الحاكمين تملقا وتزلفا، فما أسوأ مصيرهم ، وما أبشع حالهم حين صورهم القرآن بصورة الكلب اللاهث .. لقد آتاه الله آياته فتركها وقيل أيضا أنه « أميه بن أبى الصلت » والله أعلم [١].

قال تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف] .

وهؤلاء بنو إسرائيل لما أفسدوا في الأرض وقتلوا الأنبياء وسفكوا الدماء واستحلوا المحارم ، وتكبروا عن طاعة الله سلط الله عليهم أقواما ذوى قوة وبطش في الحروب فأغاروا عليهم وقتلوا واتخذوا من جلودهم نعالاً ومن شعارهم حبالا كما سنوضحه بالمزيد مع نبيهم موسى عليه السلام في فساد بني إسرائيل الذين أخذ الله منهم العهود المؤكدة على الوفاء لله والطاعة والإيمان برسله ولكنهم نقضوا كل العهود والمواثيق ، وهذا لما هم عليه من الغدر والخيانة ونقض العهود والتمادي في الغي والضلال فاستحقوا الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت] .

٦ـ بشؤم معاصي العباد ظهر الفساد في البلاد .

... وبشؤم معاصي العباد ظهر الفساد بالعصيان لله والإفساد ، فصلاح الأرض والسماء لا يكون إلا بطاعة الله ، وإذا ما ظهر الفساد انقطع المطر وأعقبه القحط والنقص في الزروع والثمار بسبب معاصي العباد ، وكان الجدب في الزراعات والثمرات ونزول الآفات بالناس والدواب ، وكثره الحرق والغرق ومحو البركة من كل شيء قال تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ [الأعراف] .

ليتألم الناس لما يصيبهم لعلهم يرجعون عن الفساد والظلم وقطع السبيل ويتوبون إلى الله ويرجعون إليه وينيبون إلى الحق ويتركون المعصية.

---

(١) م الطبري ١/ ٢٩١ .

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم].

ولينظروا إلى مساكن الذين كفروا من قبلهم وقد أهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم ليجعلهم عبرة لمن بعدهم وكان أكثرهم مشركين بالله قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الروم].

وأخبرنا سبحانه وتعالى أن كل ما ينزل بالناس من المصائب والآلام والمكاره والانتقام بالنفس والأهل والولد والعاهات بالمزروعات والمواشي فهو بسبب المعاصي ولكنه سبحانه يعفو عن السيئات قال سبحانه:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى].

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر].

وقال عليه الصلاة والسلام: والذي نفس محمد بيده ما من خدش عود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكبر[1].

فأما الذي ينزل بالطائعين من المحن والبلايا فإنها تكفير عن الخطايا، ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفر الله تعالى عنه به من سيئاته.

عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ: «إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها ابتلاه الله تعالى بالحزن ليكفرها»[2].

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «من يرد الله به خيرا يصب منه».

وروى عنه ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه»[3].

---

(١) (عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن البصري) (ابن كثير ٤/ ١١٦).

(٢) (ابن كثير ٤/ ١١٦) (رواه احمد).

(٣) (فقه السنة ص٤٨٧) (ورواه البخاري ومسلم).

وكم أهلك الله من قرية طغت وكفرت بنعمة الله فيما أنعم الله به عليهم من الأرزاق ، واندثرت ديارهم وحل بها الهلاك ، فلا تري فيها إلا مساكن أهلها الخاوية الخالية لم يسكنها إلا المسافرون أومن مر بالطريق يوما أو بعض يوم وكان هلاكها بسبب البطر والطغيان بالنعمة وعدم الشكر عليها .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [القصص] .

أي رجعت خرابا ليس فيها أحد ،، وكم من قوم كفروا ثم حل بهم البوار [١] .

عن ابن مسعود ﷺ أنه سمع كعباً يقول لعمر ، إن سليمان عليه السلام قال للهامة « يعني البومة » مالك لا تأكلين الزرع ؟ قالت لأنه أخرج آدم من الجنة بسببه ،، قال فمالك لا تشربين الماء؟قالت لأن الله تعالى أغرق قوم نوح به،،قال فما لك لا تأوين إلا إلى الخراب؟ قالت لأنه ميراث الله تعالى ثم تلا [٢] : ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [القصص] .

وقضت سنة الله تعالى التي كتبها علي نفسه رحمة بعباده وعدلا منه سبحانه أنه لا يهلك أحداً ظالما له ، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم .

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [القصص].

وكل قرية كذبت رسلها خربت منازلها وتعطلت حواضرها ، فلم تمنع حصونها وارتفاعها وحصانتها عن حلول بأس الله بهم .

ألم ينظر المكذبون مصارع أمثالهم فيعتبروا بها ، وتكون لهم القلوب التي يعقلون بها حجج الله على خلقه وقدرته ،، أو تكون لهم آذان تصغي لسماع الحق ، وتميز بينه وبين الباطل ـ إن الأبصار لا تعمى عن الرؤية ، ولكن تعمي القلوب التي في الصدور عن إبصار الحق ومعرفته .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج] .

---

(١) والبطر هو الطغيان بالنعمة ،، وكنا الوارثين لما خلفوا بعد هلاكهم (ابن كثير ٣/ ٣٩٦) .

(٢) ذكره ابن أبي حاتم (ابن كثير ٣/ ٣٩٦) .

..... ولو أن الناس آمنوا بالله ورسله إيمانا صادقاً ، فاتقوا الله وأطاعوه واتبعوا هدي رسله عليهم الصلاة والسلام ، وابتعدوا عن كل المحرمات لفتح الله عليهم القطر من السماء، والنبات في الأرض، ولكنهم كذبوا فعاقبهم الله على ما كسبوا من المآثم والمحارم :

قال سبحانه : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف] .

...وهؤلاء الذين يخالفون أوامر الله ، ويتجرؤون علي زواجره ، ويكفرون بنعمه ـ هل يأمنون عذاب الله ونكاله ؟

قال سبحانه وتعالى : ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف] .

لقد ذهب أهل هذه القرى وورثها غيرهم بعد أن هلكوا بذنوبهم فما الذي يؤمنهم أن يأخذهم الله بذنوبهم كما أخذ من قبلهم ؟ أولم يتبين للذين استخلفهم الله في الأرض من بعد إهلاك الآخرين قبلهم أن يختم الله علي قلوبهم ويفعل بهم ما فعل بمن قبلهم ....أفلا يتعظون ؟ أفلا يذكرون ؟؟

قال سبحانه : ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأعراف] .

لقد زين لهم الشيطان أعمالهم من الشرك والمعاصي ومن الاستكبار والعناد وحسّن لهم سوء أعمالهم وأعرضوا وتناسوا ففتح الله عليهم أبواب الرزق والسعة في المعيشة ، ورغد العيش وأعطاهم الصحة في الأجسام ووفر لهم كل الأسباب استدراجاً منه سبحانه وتعالى وإملاء لهم حتى إذا فرحوا بذلك النعيم أخذهم الله بالعذاب فجأة من حيث لا يشعرون ، فإذا هم هالكون .

قال جل في علاه : ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام] .

٧ ـ ميراث الجهل والظلام في الأمم قبل الإسلام .

... وإنه من نظر وتأمل في تاريخ القرون الماضية قبل الإسلام ـ قرنا بعد قرن وجيلاً بعد جيل،وجد أن ميراث كل أمة من سابقتها ميراثاً يظلله السواد، ويكتم عليه الظلام ـ ميراث في الجهل والضياع والظلم والخيانة والفساد والجبروت والطغيان ـ شرك بلا قيود وكفر بلا حدود ـ واستكبار وعناد ...

أصنام تعبد، وأوثان وأنداد وآلهة أخرى يحبونهم كحب الله ... ! اختلط الحق بالباطل، والطيب بالخبيث ، واختلت الموازين وفسدت العقائد فإذا هو الفساد في الأرض أصاب العباد في الأخلاق والأرزاق ، وهلكت البلاد بمعاصي العباد .

وإنه لمن لطف الله تعالى بعباده ، ورحمته بهم على مر القرون والأزمنة أنه كلما كان يستشري الظلم بينهم ، ويعم الفساد مجتمعاتهم يبعث الله تعالى لهم الأنبياء والرسل ـ رسول بعد رسول للهداية والإصلاح حتى يعود الناس إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها وهي توحيد الله وعبادته وإقامة ميزان الحق والعدل في الأرض : ولكن ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يس] .

يسخرون ويستكبرون، وينكرون البعث مع رؤيتهم آثار قدرة الله ، وإذا ذكروا بحجج الله ليعتبروا ويتفكروا فإنهم لا يتذكرون قال سبحانه وتعالى : ﴿ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الصافات] .

يستبعدون ذلك ويكذبون فقال سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الصافات] .

وجب عليهم العذاب بما قدموا من المعاصي والذنوب ، ومن أغواهم من الجن يوم القيامة مشتركون في عذاب النار كما اشتركوا في معصية الله ، والاستكبار والتعظم عن التوحيد بالله .... يا ويلهم من هول ما يعاينون .

﴿ فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الصافات] .

وحقت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة،كذلك حقت على المكذبين. هؤلاء الذين كذبوا رسول الله ﷺ.

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾ [غافر] .

والذين يستكبرون عن عبادة الله وتوحيده وإفراده بالإلوهية سيدخلون جهنم صاغرين قال تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر] .

وكلما فشت الذنوب والمعاصي في أمة من الأمم انتهت بها إلى ذلك المصير .

قال تعالى : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء]

٨ ـ الإيمان هو الحقيقة التي لا تتبدل في كل الرسالات .

... الحقيقة الواحدة التي لا تتبدل علي مدار الزمان وتعدد الرسالات هي حقيقة الإيمان التي جاء بها الرسل جميعا عليهم وعلي نبينا محمد الصلاة والسلام .

وعلي كلمة التوحيد قامت دعوتهم لإفراد الإلوهية والربوبية لله ، وإخلاص العبادة والعبودية لله ـ فهو سبحانه وتعالى المتصرف في أمور الخلق ، وله الأمر من قبل ومن بعد ـ كلمة واحدة قالها نوح عليه السلام .

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف] .

وهي ذاتها وبعينها الكلمة التي قالها كل من جاء بعده من المرسلين ، وبعدها يعالج كل رسول أمراض قومه التي سكنت في قلوبهم ، وسلطت على قلوبهم ، وتحملوا الأذى والمشقة بالصبر والإيمان في سبيل ذلك .

فكانت أقوام نوح وهود وصالح وإبراهيم عليهم السلام أقوام شرك ووثنية فأهتم أنبياؤهم بالقضاء علي الشرك .

... وقوم شعيب انتشر الغش بينهم ونقص الكيل والوزن ، ولوط عليه السلام افتتن قومه باللواطة وكان همه القضاء علي الفاحشة ، وموسى عليه السلام يعمل علي إنجاء الشعب الإسرائيلي من الطغاة الظالمين فرعون وملئه .

... قال نوح لقومه : ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود] .

وكذبوه وأصابهم الغرق إلا من آمن .

obeikandi.com

... وقال صالح لقوم ثمود : ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ [هود].

فكذبوه فأخذتهم الصيحة .

...وقال شعيب لأصحاب مدين قال : ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود].

فكذبوه فأصابتهم الرجفة وعذاب الظلة ، كما كذب قوم عاد هودا فأهلكوا بالريح العقيم .

وإبراهيم عليه السلام جادله قومه في توحيد الله ، قال: أتجادلونني في توحيدي لربي وحدانية الحق،ولا أرهب آلهتكم أن تنالني بسوء أو مكروه إلا ما شاء ربي وسع علم ربي كل شيء.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنعام] .

فنصره الله علي قومه وأيده بالمعجزات وأهلك ملكهم نمرود بن كنعان لعنه الله .

... وتلك الأقوام في أزمانها وقرونها كما قصها كتاب الله تعالي سنذكرها إن شاء الله بشيء من التفصيل في هذا الكتاب .

يقول ابن كثير[1]: يخبر الله عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع في عذابهم وأخذهم بالانتقام منهم ـ يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت] .

ثانيا الوحدانية لله

١ـ الوحدانية لله دعوة كل رسل الله .

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

---

(١) ابن كثير ٣/ ٤١٣ .

فكانت الوحدانية لله أول دعوة الرسل لأقوامهم،ومفتاح دعوتهم وأول منازل الطريق بإخلاص العبودية والعبادة لله وحده ، والكفر بالطاغوت وهو كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو مطاع غير الله.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[الأنبياء].

فلم يزل سبحانه وتعالى يرسل إلى الناس الرسل منذ حدث الشرك في بني آدم من قوم نوح إذ صنع الناس تماثيل لخمسة رجال صالحين بعد موتهم لتكريم ذكراهم وتوارثهم الأحفاد جيلاً بعد جيل ، وقد تعامل معهم إبليس اللعين وأوهم الوارثين لهذه التماثيل أنها آلهة تجلب الخير فعبدوها من دون الله .

ذكر الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال عن آلهتهم « ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا » قال هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحي الشيطان إلى قومهم أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، ولم تعبد حتى هلك أولئك ونسي العلم (عبدت)[1] .

٢ ـ أول الشرك في الأرض .

... فكان أول شرك وقع علي الأرض هو شرك قوم نوح [2] ، وكان سببه في البداية الغلو في الصالحين ..فلما عبدت الأصنام والطواغيت ، وشرع الناس في الضلالة والكفر بعث الله نوحا عليه السلام أول رسول إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام ليرد الناس إلى التوحيد بعد أن ضلوا واتخذوا لهم أصناما يعبدونها من دون الله .

فأمره الله سبحانه وتعالي أن ينذرهم بأس الله إن لم يتوبوا إليه ويتركوا محارمه ، ويطيعون ما أمر به ، وما نهى عنه . فقال سبحانه :

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾﴾ [هود] .

وقال سبحانه : ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١﴾﴾ [نوح] .

ولم يجد نوح عليه السلام من دعوته لقومه إلا الإعراض والضلال والعناد والاستكبار بجهل سادة القوم وكبرائهم من الكافرين وإنكارهم للحق .

---

(١) (القرطبي ١٠ / ٧٠٣٤) ورواه ابن جريج (ابن كثير ٤/ ٤٢٦) .

(٢) العدد الثاني من عقائد الإسلام للدكتور/ يوسف القرضاوي (كتاب حقيقة التوحيد ص ٦٤) .

ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما لم تثمر غير العدد القليل الذي آمن لدعوته ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود].

أما الكثرة العظمي بقيت على حالها ظالمة بكفرها جاحدة ومعرضة عن أمر ربها، وامتلأت الأرض كفرا،، وتوجه نوح إلى ربه يشكو إليه : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح].

وازداد القوم إصرارا علي الكفر فتوجه نوح إلي ربه يدعو عليهم.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح].

واستنفذ نوح عليه السلام كل الأسباب :

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر].

واستجاب الله الدعاء،وأمره بصنع السفينة حتى جاء أمر الله بطوفان الأمطار المتتابعة.

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القمر].

وحدث الطوفان وأغرق أهل الأرض كلهم إلا أصحاب السفينة وهلك القوم بذنوبهم وإصرارهم على كفرهم حتى ولد نوح قال : ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود].

قال محمد ابن اسحق : فلما أراد الله أن يكف الطوفان أرسل ريحا على وجه الأرض فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض وأبواب السماء.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود].

فجعل الماء ينقص ويغيض، وكان استواء الفلك على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة « والجودي جبل بالموصل وقال بعضهم هو الطور » .

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود].

وتلك قصة من أنباء الغيب أوحاها الله إلى رسوله ﷺ كأنه شاهدها ، وأخبار الغيوب السالفة علينا أن نؤمن بها ، ونعتبر لما جاء فيها من نقمة الله وعذابه على كل من عصاه وتحدي أوامره واستهان برسله وأشرك بعبادته أحدا غيره .

٣ ـ وفي عاد قوم هود ميراث جديد لعبادة الأصنام

... قال تعالى : ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المؤمنون] .

وعاد أول الأمم التي عبدت الأصنام بعد الطوفان ، وكانت تسكن الأحقاف جنوب الجزيرة بالغرب من حضرموت ، وكانت منازلهم على المرتفعات على البحر بأرض يقال لها الشجر ـ قيل أنهم كانوا أحياء باليمن ، وقيل إنهم كانوا بالبادية وفيها جبال شواهق ـ والله أعلم ،، وكانوا قوما أقوياء وأغنياء مكنهم الله من القوة والمال والعلم والمتاع وأتاهم من الأسماع والأبصار والأفئدة ما لم يمكن غيرهم .

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف] .

لقد استكبروا وبغوا وعتوا وعصوا واعتقدوا أنهم يمتنعون بقوتهم من بأس الله فبارزوا الجبار بالعداوة وجحدوا بآياته وعصوا رسله .

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ [هود] .

اتبعوا رؤساءهم وجبابرتهم المتكبرون الطاغون الذين لا يقبلون الحق ولا يذعنون له ـ كفروا بنعمة الله فابعدوا عن رحمة الله .

قال تعالى : ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود] .

قال لهم نبيهم هود عليه السلام آمنوا بالله ولا تعرضوا فاستكبروا على هود ومن آمن معه واغتروا بأجسامهم وقوتهم وأصروا على الكفر بعبادتهم الأصنام والأوثان «يا قوم اعبدوا الله» .

﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود] .

ولم تغن عنهم آلهتهم التي اتخذوها كما يزعمون تقربا إلى الله ، ولم تنفعهم الحواس التي تمتعوا بها ... فقد عطلوها بجحودهم لآيات الله .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [فُصِّلَت] .

وكانت الصاعقة التي أرسلها الله عليهم ريحا باردة شديدة البرد والصوت شديدة الهبوب .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القمر] .

تقول الروايات أن القوم أصابهم حر شديد واحتبس عنهم المطر، ودخن الجو حولهم من الحر والجفاف ، ثم ساق إليهم سحابة ففرحوا بها فرحا شديدا، وخرجوا يستقبلونها في الأودية وهم يحسبون فيها الماء .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحقاف] .

حملتهم الريح وحملت مواشيهم وأموالهم فجعلتهم بين السماء والأرض .

يقول ابن عباس رضي الله عنهما : فلما عرفوا أنه عذاب وليس المطر دخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم ، وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال فكانوا تحت الرمال سبع ليال وثمانية أيام حسوما ولهم أنين ، ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال واحتملتهم فرمتهم في البحر[1] ، وكذلك مصرع الظالمين .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [فُصِّلَت] .

... وتلك هي الأخرى قصة من أنباء الغيب أوحاها الله لرسوله ﷺ ، وعلينا أن نؤمن بها ، ونعتبر لما جاء فيها من نكال الله وعقابه لمن يتحدى أوامر الله ، أو يشرك به أحدا ، أو يستهين برسله الكرام .

---

(١) القرطبي ٩ / ٦٢٥٤ .

٤ ـ وخلفت ثمود عادا في القوة والتمكين :

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المؤمنون] .

وجيلا بعد جيل ... وميراث الشرك والكفر لا يتبدل ولا يتغير ، والمكذبون بالرسل لا يتغيرون ، ولا عظة ولا اعتبار من نكال الله وغضبه على قوم عاد قبلهم ...لقد خلفت ثمود عادا في القوة والتمكين في جزيرة العرب .

... قوم عاد كانوا في الجنوب وقوم ثمود بمدائن الحجر في شمال الجزيرة بين تبوك والمدينة ، وكانت مساكنهم مشهورة بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله .

﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف] .

وبقيت مساكنهم معروفة للعرب يمرون عليها في رحلتي الشتاء والصيف .

... بعث الله منهم صالحا عليه السلام يأمرهم بعبادة الله وحده .

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود] .

ولكن القوم كانوا علي جهل وعناد فاستهزءوا به ساخرين .

﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود] .

وكذبوه فقالوا : ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القمر] .

وسألوا صالحا أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه بأن تخرج لهم ناقة عشراء تمخض من صخرة صماء عينوها بأنفسهم ، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها (الكاتبة) ... وأخذ صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلي سؤالهم ... فلما قام صالح إلي صلاته دعا الله فتحركت تلك الصخرة ، ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها ،، عند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره بعد أن ظهرت حجة الله عليهم في تصديق صالح عليه السلام.. أما ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب الأوثان صد الناس عن الإيمان .

وكانت الناقة تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما .

قال تعالى : ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر] .

يوم لهم ويوم للناقة .

.... قيل أن قدار بن سالف وكان أشقى قومه عقر الناقة ورميت بسهم في عضلة ساقها ، وبكى صالح النبي لما رأى الناقة قد قتلت ، بل وعزموا على قتله .

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فُصِّلَت] .

وجاءت صيحة السماء .. بعثها الله عليهم رجفة وذلا وهوانا .. نكالاً بما كانوا يكسبون من التكذيب والجحود والاستكبار عن الإذعان للحق والتسليم له . أرسلها الله عليهم فبادوا عن آخرهم ، ولم يبق منهم باقية ، ولم يفلت منهم صغير ولا كبير..وخمدوا وهمدوا كما يهمد يبيس الزرع والنبات[1] .

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ [القمر] .

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [هود] .

٥ـ إبراهيم عليه السلام وأصنام قومه :

... وقرونا بعد قرون مضت وانتهت .. أمم وأجيال لم تجد من الميراث إلا الظلم والطغيان الذي ساد وزاد بين العباد ـ جيلا بعد جيل لا بديل ولا تبديل .. إهانة وتكذيب واستكبار وعناد .. وابن آدم مهان وذليل !!

وتأتي الرسالة الكبرى لأبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام يدعو قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له والإخلاص في التقوى ، وطلب الرزق منه وحده ، ليدفع الله عنهم الشر في الدنيا والآخرة ، وأن يشكروا له على ما أنعم به عليهم ... فإليه يرجع الأمر كله ، وإليه يعود الخلق كله للحساب والجزاء واليه سبحانه المرجع والمصير .

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت] .

قال إبراهيم لقومه أن الأصنام التي يعبدونها لا تضر ولا تنفع وهي مخلوقة وليست آلهة كما يزعمون ، فهم ينحتونها أصناما ، ويعبدونها أوثانا ، وهم الصانعون لها .. وكان

---

(١) (ابن كثير ٢/ ٢٢٥ ـ القرطبي ٩/ ٦٠١٣) .

القوم بأرض الجزيرة والشام يعبدون الكواكب السبعة في أرض الكنعانيين وبلاد بيت المقدس، وكان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها ـ وكانت الأصنام في كل مكان من الأرض ، من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد ، وأوثان من الجص والحجارة .

... أنكر إبراهيم علي أبيه وقومه عبادة الأصنام والأوثان والأنداد .

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات] .

وأهل بابل كانوا يعبدون الأصنام وهم الذين ناظرهم إبراهيم عليه السلام في عبادتها وكسرها عليهم وأهانهم ، وبين بطلانها .

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت].

ثم أنكر على أبيه ـ وكان ممن يعبد الأصنام وأحق الناس بإخلاص النصيحة.

وضرب القرآن الكريم لنا مثلا من أروع الأمثلة لبر الوالدين ومصاحبتهما بالمعروف رغم كفرهما ذلك حين قص علينا دعوة إبراهيم عليه السلام أباه إلي الإيمان بالله ـ ونهيه إياه عن عبادة الأصنام .

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم] .

وكلها في أسلوب الخطاب يا أبت : ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾[مريم] .

وأبوه أصم أذنيه ، ولم يكتف بالإعراض عن ابنه بل انتهره وهدده بالرجم والطرد والإبعاد .

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم] .

... ولم يقابل الابن البار الإساءة بالإساءة والهجران بالهجران .

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم] .

.... وهناك مشاهد أخرى من القرآن الكريم امتدح الله فيها بعض رسله علي برهم ... تلك أخلاق الأنبياء .

فقال عن يحي : ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم].

وقال عن عيسى : ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم] .

وقال عن يوسف : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [يوسف:١٠٠].

وقال إسماعيل عليه السلام : ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات] .

وتمضي مسيرة الجهاد لمحطم الأصنام إبراهيم الخليل عليه السلام الذي انتهت دعوته لقومه بإيمان فرد واحد غير امرأته ..هو لوط ابن أخيه عليه السلام والذي بعث في قومه الذين يأتون الذكور من دون النساء ، وسنأتي إلي بيانه إذا قدر الله وشاء . ولوط عليه السلام الذي آمن برسالة عمه هاجر معه من أرض الكلدانين في العراق إلي ما وراء الأردن حيث استقر بهما المقام ... وكل من كان على وجه الأرض بعد ذلك كفار....

وكان الخليل عليه السلام هو الذي أزال الله به الشرور وأبطل الضلال ، إذ آتاه الله رشده في صغره وابتعثه رسولاً واتخذه خليلاً في كبره .

قال سبحانه وتعالى :

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء].

« أي كان أهلا لذلك » هذا الرشد الذي أوتيه من صغره ـ الإنكار على قومه عبادة الأصنام من دون الله : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء] .

« أي تعتكفون علي عبادتها » : ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنبياء] .

فلم يكن لهم حجة سوي صنيع الآباء والأجداد ، وما كانوا عليه من عبادة الأنداد ولهذا قال عليه السلام : ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنبياء] .

وأعلمهم بمن هو أحق بالعبادة .

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنبياء] .

«أي وأنا أشهد أنه لا إله غيره ولا رب سواه » .

وتمضي بنا الآيات حتى جعل إبراهيم آلهتهم حطاما وهو يقول :

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنبياء] .

قال ابن عمرو ومجاهد وابن جريح أن قائل هذه المقالة رجل من الأكراد من أعراب فارس أي من باديتها اسمه هيرز « فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلي يوم القيامة وقيل بل قالها ملكهم نمرود»[١].

وجاء في الخبر أن نمرود بني صرحاً طوله ثمانون ذراعا وعرضه أربعون ذراعا . قال بن اسحق : وجمعوا الحطب شهرا ثم أوقدوها ، واشتعلت واشتدت حتي أن كان الطائر ليمر بجنباتها فيحترق من شدة وهجها ،،،ثم قيدوا إبراهيم ووضعوه في المنجنيق مغلولا، ويقال : أن إبليس صنع لهم المنجنيق ... يومئذ ضجت السماوات والأرض ومن فيهن من الملائكة وجميع الخلق إلا الثقلين «ضجة واحده» ربنا «إبراهيم» .. ليس في الأرض أحد يعبدك غيره يحترق فيك فأذن لنا في نصرته فقال الله تعالي « إن استغاث بشيء منكم أو دعاه فلينصره لقد أذنت له في ذلك ، وإن لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه »[٢].

فلما أرادوا إلقاءه في النار أتاه خُزّان الماء ـ وهو في الهواء ـ فقالوا : يا إبراهيم إن أردت أخمدنا النار بالماء ، فقال لا حاجة لي إليكم، وأتاه ملك الريح فقال : لو شئت طيرت النار. فقال : لا . ثم رفع رأسه إلي السماء فقال:« اللهم أنت الواحد في السماء ، وأنا الواحد في الأرض ليس أحد يعبدك غيري «حسبي الله ونعم الوكيل » .

روي أبي كعب ﷺ عن النبي ﷺ أن إبراهيم حين قيدوه ليلقوه في النار قال لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ـ قال ثم رموا به في المنجنيق من مضرب شاسع فاستقبله جبريل فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال: أما إليك فلا .... فقال جبريل : فاسأل ربك ، فقال حسبي من سؤالي علمه بحالي[٣] . فقال الله تعالى وهو أصدق القائلين .

---

(١) ابن كثير ٣/ ١٨٤ - القرطبي ٦/ ٤٤٨١.

(٢) القرطبي ٦/ ٤٤٨١ .

(٣) قلا من القرطبي ٦/ ٤٤٨١ ومطابقة للوارد بابن كثير برواية الحافظ أبي يعلي عن اسحاق عن أبي جعفر مرفوعة عن أبو هريرة .

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء:٦٩]

أراد نمرود وأصحابه أن يمكروا : ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء].

الأخسرين في أعمالهم ، ورددنا مكرهم عليهم بتسليط أضعف خلقنا .

قال بن عباس رضي الله عنهما : سلط الله عليهم أضعف خلقه « البعوض» فما برح نمرود حتى رأي عظام أصحابه وخيله تلوح ـ أكلت لحومهم ، وشربت دماءهم ، ووقعت واحدة في منخره فلم تزل تأكل إلى أن وصلت دماغه ـ وكان أكرم الناس عليه الذي يضرب رأسه بمرزبة من حديد ـ قال فأقام بهذا نحواً من أربعمائة سنة [1] .

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنبياء].

قيل أن الأرض المباركة أرض الشام لأنها معادن الأنبياء ،، وقال بن عباس هي مكة ، وقيل بيت المقدس ، وقيل الأرض المباركة مصر - والله أعلم .

لقد كان إبراهيم عليه السلام يعدل أمة كاملة ، وإماما يقتدي به .. دائم الخشوع والطاعة لله الذي جمع له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته ـ برأه الله من المشركين ومن اليهودية ومن النصرانية .

قال سبحانه وتعالي : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل].

وأوحي الله إلي نبينا محمد ﷺ بإتباع ملته والسعي على نهجه فقال :

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل].

فلما نجاه الله من النار هاجر مواطن الكفار ، وهجر قومه الأشرار، عوضه الله عن قومه وأهله ذرية تمضي فيها رسالة الله ، فكل الأنبياء والدعوات بعده كانت في ذريته عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت].

..... تلك كلها إشارات إلى ماضي الزمان نرى فيها ميراث القرون والأمم من الشرك وعبادة الأوثان ، والبغي والعدوان ، والظلم والطغيان ، وتكذيبهم للرسل الذين جاءوا لتحرير بني الإنسان من عبودية البشر للبشر – وإخلاص العبادة للواحد الديان .

---

(١) (القرطبي - الجامع لاحكام القرآن ٦/ ٤٤٨١) .

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [العنكبوت] .

البشرى التي جاءت بها الرسل إبراهيم عليه السلام كانت الولد الصالح .

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود] .

فلما ولد لإبراهيم إسماعيل عليه السلام من هاجر تمنت سارة أن يكون لها إبن ـ وأيست لكبر سنها فبشرت بولد يكون نبيا ويلد نبيا فكان هذا بشارة لها بأن ترى ولد ولدها [1] .

وقد كانت البركات في إبراهيم وعقبه من ولديه ـ اسحاق وأبنائه أنبياء بني إسرائيل - وإسماعيل عليه السلام ومن نسله خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام .

لقد كانت امرأته عقيما وإبراهيم شيخ كبير ولكنها قدرة الله العلي القدير .

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات] .

٦ـ ميراث قوم لوط

..... وكان لوط عليه السلام قد بدأ دعوته مع قومه بمثل ما بدأ به نوح وهود وصالح عليهم السلام ـ وكانوا يسكنون عدة قرى في وادي الأردن ، وقد انحرفوا عن الفطرة بالشذوذ الجنسي وإيتاء الذكور وترك النساء ، وكانوا قطاع طريق يأخذون الناس من الطرق فيسلبونهم أموالهم ويقضون معهم الفاحشة.

ذكر الثعلبي ـ قال معاوية [2] ـ قال النبي ﷺ : « يجلس قوم لوط في مجالسهم وعند كل رجل قصعة فيها الحصى فإذا مر بهم عابر قذفوه فأيهم أصاب كان أولى به ـ يذهب به إلى الفاحشة ـ ذلك قول الله تعالى :

﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت:٢٩] .

وإضافة إلى اللواط قال بن عباس رضي الله عنهما : كانت فيهم ذنوب غير الفاحشة فكانوا يتظالمون بينهم ، ويشتم بعضهم بعضا ، ويلبسون المصبغات ، ويتناقرون بالديكة ،

---

(١) (القرطبي ٤ / ٣٣٨٧) .

(٢) نقلا من تفسير القرطبي ٧/ ٥٢٣٠

ويتناطحون بالكباش ، ويطرقون أصابعهم بالحناء ، ويتشبه الرجال بلباس النساء والنساء بلباس الرجال ، ومع هذا كله كانوا يشركون بالله ، وهم أول من ظهر علي أيديهم اللوطية[1]..... وكان لوط عليه السلام قد وفد عليهم مع عمه إبراهيم عليه السلام بعد أن آمن بدعوته وهاجر معه إلى ما وراء الأردن ، وبعد أن أعتزل قومه وأباه ونصره الله عليهم وحطم أصنامهم ـ وبعدها عاش لوط في إحدى القبائل علي ضفاف البحر الميت وأرسله الله إلى قومه .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ [العنكبوت] .

دعاهم إلي ترك هذا العمل الفاضح واستنكر ما هم فيه بعدوانهم على الفطرة .

﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [الشعراء] .

وكانت امرأته عجوز سوء تقر القوم على فعلتهم المنكرة وتعينهم عليها ـ لذلك عندما توجه لوط إلى ربه بالدعاء أن ينجيه من هذا البلاء هو وأهله قال: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الشعراء] .

واستجاب له الله سبحانه وتعالي : ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [الشعراء] .

قيل أنه خسفت قراهم وغطاها الماء ومنها قرية سدوم ، ويقال أنها تحت البحر الميت بالأردن ، ويعلق بعض علماء طبقات الأرض أن البحر الميت يغمر مدنا كانت آهلة بالسكان ، وقد أكتشف بعض رجال الآثار بقايا حصن بجوار البحر وبجواره المذبح الذي تقدم عليه القرابين[2] .

﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [العنكبوت] .

---

(١) (القرطبي الجامع لأحكام القرآن ٧ / ٥٢٣١) .

(٢) (الظلال ٥ / ٢٦١٣) .

..... أمطرت السماء حجارة من طين متحجرة قوية شديدة معدة في السماء ومختومة عليها أسماء أصحابها الذين أنزلت عليهم حتي أهلكتهم عن آخرهم ـ فلم يبق منهم أحد.

قال مجاهد : أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم ، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ـ ثم كفأها فدمر بعضهم علي بعض .

وذكر قتادة : أنهم كانوا أربع قري في كل قرية مائة ألف ومنها سدوم ، انتسفت القصور والأرض والشجر والدواب فجعل عاليها سافلها ثم اتبعها حجارة من سجيل .

قيل أن القرى هي سدوم وهي العظمي ، وصعبة ، وصعود ، وغمرة ، ودوحاء احتملها جبريل بجناحه .

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود] .

٧ ـ مدين وميراث الكفر والتمرد .

..... وقرنا آخر ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المؤمنون] .

ويأتي دور مدين ، وهي قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام ـ أو بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة ،، والأيكة شجرة كانوا يعبدونها ، وقيل أن أصحاب الرس هم قوم شعيب وأصحاب الأيكة قوم شعيب ، وأن أصحاب الأيكة ومدين هما واحد «والله أعلم» [(١)] .

وكانوا يجترئون على معاصي الله وتكذيب رسل الله ، يخبر الله تعالى عن شدة كفرهم وتمردهم وعتوهم ، وما هم فيه من الضلال ومخالفة الحق بالتكذيب والإعراض .

أرسل الله تعالى إليهم شعيبا يأمرهم بعبادة الله وحده وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان ، وينهاهم عن العتو في الأرض بالفساد ، وقد كانوا يقطعون الطرق .

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ [هود].

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود].

---

(١) (ابن كثير ٣/ ٣٤٥) .

obeikandi.com

وكما أجابت ثمود لرسولها أجاب قوم شعيب .

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الشعراء] .

قالوها على وجه التعنت والعناد تماما كما قالت قريش للحبيب المصطفى ﷺ ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [الإسراء] .

وجاء أمر الله في مدين ورفقائها قوم شعيب عليه السلام ورثة الكفر والعناد والتمرد ، فإذا بسحابة تظلهم فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر فاجتمعوا كلهم تحتها ، وإذا بشرر النار واللهب والوهج العظيم ... ثم جاءت صيحة من السماء عظيمة تزهق الأرواح ورجة من الأرض شديدة من أسفل منهم فزهقت الأرواح ، وفاضت النفوس ، وخمدت الأجسام .

.... بعث الله عليهم رعدا وحرا أخذ بأنفاسهم فخرجوا من البيوت هربا إلى البرية ، فبعث الله عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس فوجدوا لها بردا ولذة فنادى بعضهم بعضا حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم نارا ... فذلك عذاب يوم الظلة .

قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [الشعراء] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [هود] .

ذلك لقولهم: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأعراف] .

ولما استهزءوا بنبي الله على سبيل التهكم والازدراء: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ [هود] .

فتولى شعيب عنهم بعد ما أصابهم من العذاب والنقمة وقال موبخا لهم يا قوم لقد أديت ما أرسلت به ولا آسف عليكم[1] .

---

(١) (ابن كثير ٢/ ٤٥٥ - القرطبي ٣/ ٣٤٧) .

﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف] .

٨ـ يا حسرة علي العباد.

... ومرة أخري وليس لهذه المرات نهاية يا ويل العباد ويا حسرتهم علي أنفسهم علي ما ضيعوا من أمر الله ، وفرطوا في حب الله، ما يفتأون يكذبون الرسل ويستهزئون بهم ويجحدون بما أرسلوا به من الحق غير معتبرين بمصارع المكذبين ولا متعظين لآيات الله والحق المبين ، لم يتعظوا بأسلافهم المجرمين وما أصابهم الله بذنوبهم من العذاب المهين .

وضرب الله لهم مثلا أصحاب قرية أخرى أرسل سبحانه إليها رسولين كما أرسل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون وملئه قيل أنهم رسل المسيح إلى أهل إنطاكية التي آمنت برسالته وهم شمعون ويوحنا وبولص ، وقيل أنهم كانوا رسل الله لا من جهة المسيح ، كل ذلك في علم الله ولن يفيدنا الدوران في مثل هذه الغيبيات التي لم يشرحها لنا القرآن ، والشاهد هنا أن أهل القرية كذبوا رسلهم بعد ما عزز الله الرسولين بثالث واعترضوا وأنكروا شأن الأمم والقرون مع أنبيائهم .

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يس] .

وما بعد ذلك من الأحداث التي شابهت وطابقت أهل الاعتراضات في تاريخ الرسل والرسالات ، أهل الضلالات الذين لا يطيقون الهدي ويعمدون إلي الباطل ليدحضوا به الحقّ يقاومون الحجة ويهددون بالرجم أو الطرد أو الإبعاد .

مرة في قوله تعالي في إبراهيم: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم] .

ومرة في قوله تعالي : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ [إبراهيم] .

وفي قوله تعالي عن شعيب : ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾﴾ [هود] .

وهنا في هذه القرية المثل : ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾﴾ [يس] .

وقال قوم لوط : ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف].
وأنزل الله آياته على رسوله محمد ﷺ في كفار قريش الذين هموا بإخراجه ﷺ من بين أظهرهم فقال سبحانه : ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء].

فتوعدهم الله بهذه الآية وأنهم لو أخرجوه ما لبثوا بعده بمكة إلا يسيرا وكذلك وقع فإنه بعد هجرته صلي الله عليه وسلم من بين أظهرهم وبعد ما اشتد أذاهم له ما هي إلا سنة ونصف حتى جمعهم الله وإياه ببدر علي غير ميعاد فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم فقتل أشرافهم وسبي ذراريهم ...سنة الله في الذين كفروا برسله وآذوهم وتوعدوهم.

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء].

أمما وخلائق ، أمة بعد أمة ،وقرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل وخلفا بعد سلف ، وجعلهم الله أخبارا وأحاديث للناس .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون].

٩ـ موسى عليه السلام رسول الملك القهار يواجه فرعون الظالم الجبار .

وكان فرعون ملك مصر وملك القبط وملئه قد افتروا وبغوا وطغوا، سلكوا طريق الجهل والعناد ، وتنافسوا في الغي والظلم وإذلال العباد، حماقة وجهل وشطط وعصيان لأمر الله .. واستشرى الفساد في البلاد .

وكان فرعون ذو قوة وبطش ، يعذب الناس بالأوتاد ، وإذا غضب على احد مده مستلقيا بين أربعة أوتاد في الأرض ، ويرسل عليه العقارب والحيات حتى يموت .

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر].

الجنود والعساكر والجموع والجيوش هى التي تشد ملكه وتقوي بطشه .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « كان يعذب الناس بالأوتاد ويشدهم بها إلى أن يموتوا تجبرا منه وعتوا ،، وهكذا فعل بامرأته آسية وابنته ماشطة » .

قال عبد الرحمن بن زيد : كانت له صخرة ترفع بالبكرات ، ثم يؤخذ الإنسان فيوتد له أوتاد الحديد ، ثم يرسل تلك الصخرة عليه فتشدجه«قمة القهر والظلم » .

ومن جانب الطور الأيمن بالوادي المقدس بالبقعة المباركة ،كلم الله سبحانه وتعالي موسي غليه السلام وناجاه ، وأرسله واصطفاه وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه ليطلق سراح بني إسرائيل من أسر فرعون وقبضته ، وينقذهم من قهره وتعذيبه .

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ ﴾ [الشعراء].

أرسل الله تعالى موسى عليه السلام يدعو فرعون ليتطهر من رجس الشيطان والطغيان ودنس العصيان .

لقد تجاوز فرعون حده في العدوان والطغيان والكفر والعصيان ، وأمر الله موسى وأخاه هارون أن يذهبا إلى فرعون لإبلاغ رسالة الله بالحجة والأدلة ليذكر ويرجع عن غيه وتمرده قال سبحانه وتعالى :

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه] .

وقال تعالى : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه] .

وقال سبحانه لموسى عليه السلام .

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النازعات] .

قال موسى إن الله قد أرسلني إليك فان أطعته سلمت وإن خالفته عصيت.

روى وهب وغيره أن موسى وهارون لما دخلا على فرعون وجداه وقد اخرج سباعا من أسد ونمور وفهود يتفرج عليها، فخاف سواسها أن يبطش بموسي وهارون فأسرعوا إليها ،، وأسرعت السباع إلي موسي وهارون وأقبلت تلحس أقدامهما وتبصبص إليهما بأذنابها وتلصق خدودها بفخذيهما فعجب فرعون من ذلك فقال ما أنتما؟

قالا : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الشعراء].

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأعراف].

وحدثت مناظرة موسى لفرعون بالحجة والبينة أمام قومه من قبط مصر وقال إن الذي أرسلني إليك هو الله خالق كل شيء وربه ومليكه فأطلق بني إسرائيل من أسرك وقهرك ودعهم لعبادة ربك وربهم فإنهم من سلالة النبي الكريم إسرائيل وهو يعقوب ابن اسحق ابن إبراهيم الخليل .

وقد القي موسى عصاه : ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشعراء] .

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ [طه] .

وانتصر موسى على سحرة فرعون الذين آمنوا برب العالمين رب موسى وهارون ، وفرعون يتوعدهم بالعذاب والتقتيل والتنكيل .

﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشعراء] .

تجاوز فرعون حده في العدوان والطغيان والتعذيب والكفر والعصيان .

قال قتاده : كان فرعون أعنف أهل الأرض وأكفرهم فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها ، ليعلموا أن الله تعالى حكم عدل لا يؤاخذ أحداً إلا بذنوبه ويقول : كان إيمان آسية بنت مزاحم امرأة فرعون من قبل إيمان خادمة فرعون ذلك أن امرأة خازن فرعون جلست تمشط ابنة فرعون فوقع المشط من يدها فقالت : « تعس من كفر بالله » فقالت ابنة فرعون : ولك رب غير أبي ؟

قالت نعم « زبي ورب أبيك الله ورب كل شيء الله » فلطمتها ابنة فرعون وضربتها وأخبرت أباها ... فأرسل فرعون إليها فقال : تعبدين ربا غيري ؟ ... قالت نعم ربي وربك ورب كل شيء وإياه أعبد ... فعذبها فرعون وقتل أبناءها الذين بشرت أرواحهم أمهم بالثواب عند الله[1] .

والشاهد أن امرآة فرعون سمعت كلام روح ابنها الأكبر الذي بشر أمه بما عند الله لها ـ فآمنت آسية بنت مزاحم أمراه فرعون ، وقبض الله روح امرأة خازن فرعون .

واطلع الله فرعون علي إيمان امرأته فقال للملأ : ما تعلمون من آسية بنت مزاحم ؟

---

(١) (والقصة بالكامل لمن أراد الإطلاع والزيادة بتفسير ابن كثير ٤/ ٣٩٤) .

فأثنوا عليها ـ فقال لهم إنها تعبد غيري ـ فقالوا له أقتلها ـ فأوتد لها أوتادا فشد يديها ورجليها ـ فدعت ربها فقالت :

﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم] .

فوافق ذلك أن حضرها فرعون فضحكت حين رأت بيتها في الجنة ... فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها ؟ إنا نعذبها وهي تضحك ! ... فقبض الله روحها في الجنة ـ رضي الله عنها [1].

ويحدث فرعون موسى وهو يعرفه فقد تربى في بيته وهدده فرعون .

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الشعراء].

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء] .

ونادي فرعون في قومه قال : ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزُّخرُف].

وقد اخبرنا الله تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافترائه في دعواه الإلوهية لنفسه قال الله تعالى : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [القصص] .

واستمر فرعون علي كفره وطغيانه مكذبا بالحق ممتنعا عن الطاعة فاجرا في كفره: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف].

وكانت النهاية المؤلمة لفرعون .

قال الله تعالى : ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات] .

١٠ـ هلاك الطاغية .

فلما تمادي قبط مصر علي كفرهم وعنادهم متابعة لفرعون ملكهم ، ومخالفة لنبي الله موسى عليه السلام دعا موسى ربه وهو غاضب لدين الله .

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟

---

(١) ابن كثير ٤/ ٣٩٤ .

عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [يونس] .

استجاب الله تعالي الدعوة كما استجاب لنوح من قبل حيث قال :

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [نوح] .

ولأنه من سنن الله في عباده أن ينجي الذين أمنوا ويهلك الكافرين .. أمر الله تعالى موسي أن يخرج ببني إسرائيل وأعلمه أن فرعون وقومه سيتبعونه ليردوهم : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشعراء] .

وخرج موسى بهم ليلا قاصدين بلاد الشام .

فلما علم فرعون اشتد غضبه فأرسل في المدائن حاشرين لتلحقه العساكر ، وإذا بموسى يترك الطريق إلى الشام على يساره ويتوجه نحو البحر مجيبا على قومه أنه قد أُمر من الله بذلك .. ولحقهم فرعون بالجنود .. وتراءى الجمعان ولم يبق إلا المقاتلة ،، وجنود فرعون لا قبل لموسى وقومه بها ولا قدرة علي ردها .. البحر أمامهم والعدو بقوته وراءهم..قالوا انتهى الأمر وإنا لمدركون، انتهينا لا محالة .. وموسى يتلقى الأوامر من ربه الذي وعده بالهداية والظفر يرد عليهم بكل ثقة ..

﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] .

ويوصي موسى قومه باحتمال الفتنة ، والتجلد بالصبر على البلية والاستعانة بالله والتوكل عليه : ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [يونس] .

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الأعراف] .

﴿ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يونس] .

فلما زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، واقترب فرعون وجنوده أوحي الله الحليم العظيم إلى موسى الكليم « أن اضرب بعصاك البحر ، فلما ضرب انفلق اثني عشر طريقا عدد أسباط بني إسرائيل ووقف الماء بينهما كالجبل بقدرة القادر الذي يقول للشيء كن فيكون » .

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الشعراء].

فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين فلما تجاوزه بآخرهم كان أول جنس لفرعون قد قدم، وأراد موسى أن يضرب البحر ليرجع كما كان حتى لا يصل فرعون وجنوده إليهم .... ولكن الأمر من السماء .

﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الدخان].

كان الله تعالى قد شاء إغراق فرعون ولهذا أمر موسى أن يترك البحر ساكنا على حاله ، حتى كان فرعون وجيشه في منتصف البحر وكاد أن يصل إلى الضفة الأخرى أصدر الله تعالى أمره إلى جبريل عليه السلام فحرك الموج ، وقيل أن جبريل عليه السلام اقتحم البحر فلما رأته جنود فرعون اقتحموا وراءه مسرعين فأمر الله كليمه موسى فيما أوحاه إليه أن يضرب البحر بعصاه فضرب فارتطم عليهم البحر كما كان فلم ينج منهم إنسان .. غرق فرعون وجيشه وغرق معه العناد والاستكبار والعظمة والكبرياء والكفر والضلال ، ورأي فرعون وهو يغرق مقعده في النار .. ولما رأي فرعون ما رأيناه تحقق أن هذا من فعل رب العرش الكريم وندم حيث لم يعد ينفع الندم : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود].

يقود قومه ويمضي بهم إلى النار حتى يدخلهم فيها ويصليهم سعيرها وبئس الدخول الذي يدخلونه : ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر].

قال سبحانه وتعالي : ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس].

والله أعلم لورد إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان .. فكان الهلاك للجبارين الكافرين ونهاية للظالمين المتكبرين ، وانتهت بمصارع الطغاة والمجرمين وأهل الكفر والشرك على مدى القرون أجمعين .

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء].

وتلك سنة الله في هلاك الظالمين.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر].

١١ـ بنو إسرائيل قوم يجهلون:

ونجى الله بني إسرائيل من أيدي الظلمة الفاسقين، وأغرق فرعون الفاجر الجبار العنيد.. نجاهم من قبضته ومن جبروته بعد أن سلبهم العز والمال والأنفس، وهلك كل شيء باستثناء المستضعفين والعامة والرعايا والفئة القليلة التي آمنت برب موسى، كل شيء بعد ذلك هلك، الحاشية والسلطان والأمراء والجنود.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف].

ولقد عاين بنو إسرائيل من آيات الله وقدرته وما امتن عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد وإهلاكه وهم ينظرون كما قال تعالى:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة].

وكأن الناس قد ألفوا السخرة والعبودية لغير الله، نسوا الجبروت والذل الذي عاشوه والمعجزة التي أنقذتهم من فرعون وملئه وأهلكتهم أجمعين، اشتاق القوم إلى الوثنية والشرك لمجرد أن رأوا قوما يعكفون علي أصنام آلهة لهم، بعد خروجهم من مصر إلى أرض الشام، وقد جاوزوا البحر ونجوا من القوم الظالمين.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف].

روى ابن جرير مرفوعا إلي أبي واقد الليثي أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى خيبر قال وكان للكفار سدره يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ـ

قال : فمررنا بسدرة خضراء عظيمة ، قال فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط .

قال : قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال : ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف].

وفي رواية النسائي والترمذي قال : فقال النبي ﷺ : الله اكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم [(١)] .

فكان هذا المثل يضربه الله للقلة المؤمنة في مكة والمطاردة من الشرك ليبين ما أورث الله المستضعفين من بعد طاغوت فرعون وقومه .. ورثوا ما كان فرعون وملؤه يجمعونه من الأموال وما كانوا يعرشون ـ ذلك قوله الله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص] .

وتحقق وعد الله للمستضعفين الصابرين وأورث الله تعالى بني إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم بأرض الشام ومصر وملكوا الأرض كلها بخيرها وزروعها وأنهارها قال سبحانه وتعالى : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف] .

بهذا الهلاك الذي دمر الله علي الظالمين وما كانوا يعرشون ونجاة بنو إسرائيل ونبيهم سالمين كان على موسى أن يواجه معركة جديدة بعد نهاية معركته مع فرعون ونصر الله له ـ هناك مهمة جديدة يواجه بها الذي أصاب بني إسرائيل والإهانة التي عشقوها والقسوة والجبن والضعف والإرهاب الذي عاشوا فيه في ظل الوثنية الفرعونية .

١٢ ـ موسي والمهمة الجديدة في جهاد الفتنة والشرك ببني إسرائيل .

قال سبحانه وتعالى : وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [البقرة] .

فلما تم الميقات عزم موسى على الذهاب إلى الطور فاستخلف على بني إسرائيل آخاه هارون ، وأراد موسى أن يذكره بالإصلاح وعدم الفساد .. من باب النصيحة والتذكير

(١) البداية لابن كثير ٣١٢ .

فالمعلوم أن هارون نبيا ويعلم ذلك ..ولكنه من بين كل موقف وأخر يعلمنا الإسلام أمرا من أخلاق ديننا ، وهو هنا التواصي بيننا بالنصيحة ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف] .

أي كن خليفتي تنوب عني «ذلك أثناء قيامه بمهمته للقاء ربه » .

وفي صحيح مسلم عن سعد ابن أبي وقاص قال . سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي حين خلفه في بعض مغازيه :

«أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» .

وأستخلف النبي ﷺ على المدينة ابن مكتوم وغيره ، ولم يلزم بذلك استخلاف دائم ، وهارون كان مع موسى في أصل الرسالة حين سأل موسى ربه فأجاب : ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه] .

ثم قال تعالى : ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [طه].

وفي غيبة موسى عندما ذهب إلى ميقات ربه على الجبل اتخذ بنو إسرائيل العجل من بعده ، قال لهم السامري هذا إلهكم وإله موسى فاطمأنوا إلى قوله ، ولكن هارون النبي والذي استخلفه أخوه على بني إسرائيل ونصحه وذكره بالإصلاح كان قد حذرهم ونهاهم .

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه] .

ولما رجع موسى إلى قومه ورأي ما حدث فيهم أخذ برأس أخيه يجره إليه وشرع يلوم أخاه ويشده من شعره ولحيته وألقي الألواح مما اعتراه من الغضب والأسف حين اشرف علي قومه وهم عاكفون علي عبادة العجل وعلى أخيه في إهمال أمرهم ، وبين له أخوه أنهم استضعفوه وكادوا يقتلونه ... وأيضا ما بين الآيات وبعضها يضع الله للناس أموراً تلفت إليها آيات القرآن نظرهم ليعتبروا ويعملوا .. وفي هذا الموقع وفي قول موسى : ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ [طه] .

فبين هارون أنه إنما قام خوفا على نفسه من القتل ، فدلت الآية على أنه لمن خشي القتل على نفسه عند تغيير المنكر أن يسكت [١] .

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الأعراف] .

قال موسى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأعراف] .

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضا .

﴿ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [البقرة] .

قال سفيان بن عيينة : التوبة نعمة من الله أنعم بها الله على هذه الأمة دون غيرها من الأمم ، وكانت توبة بني إسرائيل القتل .

قال الزهرى : لما قيل لهم : ﴿ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة:٥٤] .

قاموا صفين وقتل بعضهم بعضا حتى قيل لهم كفوا فكان ذلك شهادة للمقتول وتوبة للحي .... وأقوال أخرى [٢] .

١٣ ـ موسى والتوراة ميراث بني إسرائيل .

... وأعطى الله موسى التوراة تماما لنعمة الله على عبده موسى وفيها الهداية والرحمة والرشاد وهي أول كتاب سماوي نزلت فيه الفرائض والحدود والأحكام بعد هلاك فرعون وملائه .

قال سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الأنعام] .

ليتذكر الناس ويهتدوا وليروا كيف تتدخل يد القدرة بين الطغاة والمستضعفين فتختم للطغاة بالهلاك والتدمير ، وتختم للمظلومين بالخير والتمكين ، ويثقوا بثوابهم في الآخرة .

---

(١) (القرطبي ٤/٢٨١٨) .

(٢) (القرطبي ١ / ٤٤١ – ابن كثير ١ / ٩٢) .

عن أبي سعيد الخدري قال ما أهلك الله قوما بعذاب من السماء ولا من الأرض بعد ما أنزلت التوراة علي وجه الأرض غير أهل القرية الذين مسخوا قردة بعد موسى [1] وقرأ الآية : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القصص] .

وفي رواية أخرى ما أهلك الله قوما بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى « أي بعد قوم نوح وعاد وثمود ، وقيل من بعد غرق فرعون وقومه وخسف الأرض بقارون » .

وتلك سنة الله تعالى بإهلاك الظالمين وتوريث الأرض للمستضعفين الصابرين وجعل الله تعالى العاقبة لبني إسرائيل فأورثهم بلاد فرعون وأمواله وأرضه بما صبروا على طاعة الله تعالى وإتباع رسوله موسى عليه السلام وفي الكتاب الذي أورثوه .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [غافر].

١٤ ـ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ورجال أبوا عن الجهاد .

فلما انفصل موسى من بلاد مصر وواجه بلاد المقدس وجد فيها قوما من الجبارين فأمر موسى قومه بالدخول عليهم ومقاتلتهم وإجلائهم عن بيت المقدس .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [المائدة] .

فأبوا عن الجهاد .. لقد خافوا من هؤلاء الجبارين ، وقد عاينوا من قبلهم فرعون وجبروته وقوته وذلهم علي يديه ، وكذلك رأوا هلاكه عندما حقت عليه كلمة الله ، وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأسا وأكثر جمعا وأعظم جندا .

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المائدة] .

وهنا نقف وقفة نذكر فيها أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر حينما استشارهم رسول الله ﷺ في الذهاب إلى النفير قال سعد بن معاذ رضي الله عنه « فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت البحر بنا لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد فسر بنا على بركة الله» .

---

(١) وهكذا رواه أبو بكر الرازي في مسنده عن أبي سعيد مرفوعا .

وروى الأمام أحمد عن طارق بن شهاب أن المقداد قال لرسول الله ﷺ بدر « يا رسول الله إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسي اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون» (١) .

وصدق الله إذ يقول : ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب] .

وما ترك هؤلاء الرجال عهد الله وما نقضوه ولا بدلوه .

.... قال البخاري عن يزيد بن ثابت عن أبيه قال :

لما نسخنا المصحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها لم أجدها إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ﷺ الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين .

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم﴾ [الأحزاب:٢٣] .

وروي الأمام أحمد عن أنس ﷺ قال: (عمي أنس بن النضر ﷺ « سميت به » ـ لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر فشق عليه وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ وغيبت عنه ، لئن أراني الله تعالي مشهدا فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله عز وجل ما أصنع ، قال: فهاب أن يقول غيرها .

فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد ـ فاستقبل سعد بن معاذ ﷺ فقال له أنس ﷺ : يا أبا عمرو واهاً لريح الجنة ـ إني أجده دون أحد قال : فقاتلهم حتى قتل ﷺ ـ قال : فوجد في جسده بضع وثمانون ضربة وطعنة ورمية .. فقالت أخته عمتي الربيع ابنة النضير : فما عرفت أخي إلا ببنانه «فنزلت الآية علي رسول الله ﷺ » (٢).

وما بدلوا الوفاء بالغدر ، وما غيروا عهدهم .. بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه ، وما نقضوه كالمنافقين الذين لا عهد لهم .

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ۖ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد] .

وإنما يختبر الله عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب مع أنه سبحانه وتعالي يعلم كل شيء قبل كونه ، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم حتى يعملوا بما يعلمه منهم .

---

(١) البداية ١ / ٣١٥ .

(٢) رواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث سليمان بن المغيرة (ابن كثير ٣/ ٤٧٥) – (وفي رواية (القرطبي ٧/ ٥٤١٨) .يا أبا عمرو ، أين ؟ قال واهاً لريح الجنة أجدها دون أحد .

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عمران].

ليجزي الله الصادقين بصدقهم وصبرهم على ما عاهدوا الله عليه، ويعذب الذين نقضوا عهد الله وخالفوا أوامره فاستحقوا عقابه .. ولكنهم تحت مشيئة الله في الدنيا إن شاء استمر بهم علي ما فعلوا حتى يلقوه فيعذبهم عليه، وإن شاء تاب عليهم .. وأرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلي الإيمان والعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان.

ورحمة الله ورأفته بخلقه هي الغالبة.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب].

وهذا الصحابي الجليل عمير بن الحمام الأنصاري يرمي ما كان معه من التمر يأكل فيه حتى لا يؤخره أكل الثمرات عن الجهاد في سبيل الله لينال الجنة التي وعد الله بها عباده، واشترك مع المسلمين في التصدي لقوي الشر والبغي .. ودخل معركة من معارك المسلمين حاملا سلاحه بيمينه يهوي على رقاب المشركين .. فما زال حتى قتل شهيدا تاركا للأجيال من بعده مثلا أعلى في التضحية والفداء[1].

هؤلاء رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه اتبعنا أفعالهم وجهادهم بعد أن رأينا بنو إسرائيل الذين أعطاهم الله نعما عظيمة فما رعوها حق رعايتها، ولا قاموا بشكرها .. وفي أول اختبار لهم، أبوا الجهاد لهؤلاء الجبارين الذين وجدوهم في بيت المقدس وقالوا لرسولهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة].

وهؤلاء بنو إسرائيل ... استعصوا عن مصاولة الأعداء، ومقاومة المردة، وأبوا عن الجهاد في سبيل الله ....

هؤلاء بنو إسرائيل ... أفسدوا في الأرض، وقتلوا الأنبياء والعلماء، وسفكوا الدماء، واستحلوا المحارم، وتكبروا عن طاعة الله، وتمردوا على الله، وخالفوا أحكام التوراة ... تكبروا وبغوا وطغوا واستطالوا بالعدوان.

أخبرهم الله في الكتاب الذي أنزل عليهم ... أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ويعلون علوا كبيرا .. أي يتجبرون ويطغون ويفجرون.

---

(١) كتاب الجمعة والعيدين (لجنة من كبار علماء الأزهر ص ٣٩٢).

فقال تعالى : ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾ [الإسراء] .

فلما طغوا وبغوا سلط الله عليهم عدوهم فأذلهم وقهرهم .. سلط الله عليهم أقواما ذوي قوة وبطش في الحروب فأغاروا عليهم ... فإذا جاء وعد أولاهما «أي أولى الإفسادتين» بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد «أي سلطنا عليكم جندا من خلقنا أولى بأس شديد قوة وعدة وعدد وسلطنة شديدة » فجاسوا خلال الديار « أي تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم أي بينها ووسطها لا يخافون أحدا» .

﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾ [الإسراء] .

قال بن عباس وقتادة : هو جالوت الجذري ثم قتل داوود جالوت.

وقال سعيد بن جبير : أنه سنحاريب ملك الموصل وجنوده ، وقيل إنه بختنصر ملك بابل ... « والذي قال فيه ابن حاتم أنه سار إلى بلاد المقدس وقتل الكثير من بني إسرائيل» .. سلط الله عليهم أقواما من قبيل تولية بعض الظالمين بعضا فقتلوهم واتخذوا من جلودهم نعالا ، ومن شعارهم حبالا [1] .

﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإسراء] .

قال قتادة : عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحي محمدا ﷺ وأصحابه يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون [2] .

فإذا جاء وعد الآخرة وافسدوا الكرة الثانية .. جاء أعداؤهم ليهينوهم ويقهروهم ويدخلوا بيت المقدس كما دخلوه أول مرة .. المرة التي جاسوا فيها خلال الديار ليدمروا ويخربوا ما ظهروا عليه .

﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإسراء] .

وقلنا لبني إسرائيل من بعد هلاك فرعون اسكنوا أرض الشام ، فإذا جاءت القيامة حشرناكم من قبوركم جميعا مختلطين قد التف بعضكم على بعض ـ المؤمن بالكافر ـ لا يتعارفون ، ولا ينحاز أحد إلى قبيلته وحيه .. كلكم جميعا من جهات شتى مجتمعين

---

(١) ابن كثير ٣ / ٢٥ .

(٢) ابن كثير ٣ (٢٥ / ٢٦) .

مختلطين ..هذا ويخرجون وقت الحشر من القبور كالجراد المنتشر ، وقيل فإذا جاء وعد الآخرة يعني مجيء عيسى عليه السلام من السماء [١] .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الإسراء] .

قال بن عباس وقتادة : جئنا بكم جميعا من جهات شتى .

ويقول صاحب الظلال[٢]: وقع في علم الله مآل ما سيكون من بني إسرائيل من قضائه القهري الناشئ عن أفعالهم ، وكلما ارتفعوا وأفسدوا سلط الله عليهم من عباده من يقهرهم ويدمرهم تدميرا .

الأولى يعلون في الأرض المقدسة ويصبح لهم فيها قوة وسلطان .. فيفسدون فيها .. فيبعث الله عليهم عبادا من عباده أولى بأس وبطش وقوة يستبيحون ديارهم ويطأون ما فيها ومن فيها بلا تهيب .. وكان وعدا مفعولا لا يخلف ولا يكذب حتى إذا ذاق بنو إسرائيل القهر والذل فرجعوا إلى ربهم ، وأصلحوا أحوالهم ... وإذا استعلى الفاتحون وغرتهم قوتهم فطغوا هم الآخرون وافسدوا في الأرض .. مكن الله للمستضعفين من المستكبرين .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الإسراء] .

وصدقت النبوءة ووقع الوعد ـ فسلط الله على بني إسرائيل من قهرهم أول مرة ، ثم سلط عليهم من شردهم في الأرض ودمر مملكتهم تدميرا.

وعاد بنو إسرائيل إلى الإفساد في الأرض فسلط عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها ، ثم عادوا إلى الإفساد فسلط الله عليهم عبادا آخرين .. حتى كان العصر الحديث فسلط عليهم هتلر .

ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة إسرائيل التي أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات .. وليسلطن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب تصديقا لوعد الله ، ووفاقا لسنته التي لا تتخلف .

﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [الإسراء] .

---

(١) م الطبري ١ / ٤٨٩ - القرطبي ٥ / ٤٠٦٧ .

(٢) في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب ٤/ ٢٢٠٨ .

... وإن غدا لناظره قريب .. تحصر جهنم الكافرين فلا يفلت منهم أحدا.

١٥ ـ ثمرة الميراث الملعون فيما مضى من القرون .

وهكذا كانت القرون الماضية يخيم عليها الفساد والضياع ، ويطبع عليها الجهل والضلال والذل والاستعباد ، والكفر والشرك .. أمة بعد أمة ، وقرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، وخلفا بعد سلف .

كل جيل يرث من الذي سبقه ميراثا من ميراثهم لأسلافهم فيزيد فيه ، ويزينه الشيطان إليهم .. فيسلموه للجيل الذي يليه شركا وكفرا ، وفسادا وظلما وطغيانا ، وجهلا واستبدادا .

* رأينا ميراث قوم نوح من الضلال والعصيان ، والكفر والشرك وعبادة الأصنام ، والإعراض والاستكبار والاستهزاء بنوح عليه السلام .. وكيف كان عقاب الله ونكاله .

* ورأينا ميراث قوم عاد من عبادة الأصنام والأوثان، والاستكبار والبغي، والعتو والعصيان ، والجحود بآيات الله وعصيان رسوله .. وكيف كان عقاب الله ونكاله .

* ورأينا في قوم ثمود الجهل والعناد ، والسخرية والاستهزاء ، والتكذيب برسولهم صالح عليه السلام وعقرهم الناقة .. وكيف كان عقاب الله ونكاله.

* ورأينا قوم مدين وقد عثوا في الأرض الفساد وقطع الطريق ، وتكذيب الرسل ، والإجتراء على معاصي الله بالتمرد وشدة الكفر وعبادة الأنداد ، بخلاف شهرتهم في تطفيف المكيال والميزان . وكيف كان عقاب الله ونكاله.

* وقوم لوط الذين خرجوا عن فطرة الدين وانحرفوا إلى اللوطية،وقطعوا الطرق، وارتكبوا المنكر ، وقلدوا النساء.. وكيف كان عقلب الله ونكاله.

* وقوم إبراهيم عليه السلام وكيف نصره الله عليهم ، وأيده بالمعجزات الظاهرة .. وأهلك ملكهم نمرود بن كنعان لعنه الله .

* ورأينا فرعون الفاجر الجبار المتكبر الذي بارز الله في سلطانه وأدعى الإلوهية ، وقومه الغارقون معه في الشرك والظلم والطغيان والجحود والاستعباد ..ثم كيف كان عقاب الله ونكاله.

* ثم رأينا بني إسرائيل بعد هلاك فرعون وقد ألفوا السخرية والعبودية لغير الله ، وخالفوا نبيهم وعصوه ، وكتابهم حرفوه ، وأفسدوا في الأرض ، وقتلوا الأنبياء ، ولم

يشكروا نعم الله عليهم بل قابلوها بسفك الدماء ، واستحلال المحارم ، والتكبر عن طاعة الله ... ويا ويلهم من عقاب الله ونكاله .. ونصرة المؤمنين عليهم في الدنيا إن شاء الله .

* ميراث سيء كثرت فيه ذنوب العباد بفسادهم وإفسادهم للبلاد ، ولم يكن يستحق إلا عقاب الله ونكاله .. ليرى كل من تساوره نفسه بالعصيان كيف يكون عقاب الله .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] .

أغرق الله أهل الأرض في قوم نوح حتى علا الماء فوق رءوس الجبال .

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القمر] .

* وسلط الريح علي قوم عاد فألقتهم موتي كأنهم أعجاز نخل خاوية .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القمر] .

* وأرسل الصيحة علي قوم ثمود حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن أخرهم: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ ﴾ [القمر] .

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الحاقة] .

* ورفع سبحانه قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم ، ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها وأهلكهم جميعا .

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ ﴾ [هود] .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحجر] .

* وأرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظل فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم نارا تلظى.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود].

* وأغرق فرعون وقومه في البحر ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم.

﴿وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء].

﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر].

* وقارون لما بغى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص].

﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص].

.. وسوف نأتي إليه بالمزيد من البيان في كتابنا «النصاب الذهبي في ميراث حضرة النبي».

* وبعث الله على بني إسرائيل قوما أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار، وقتلوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء، وأحرقوا الديار، ونهبوا الأموال..

ولا زال الأمر منتظرا، فوعد الله حق على المفسدين والمجرمين، ولن يخلف الله وعده ... وإن غدا بمشيئة الله لناظره قريب.

* والمكذبون الضالون في كل أمة وفي كل جيل ليسوا أكرم على الله من الذين أهلكهم بذنوبهم .. وهو سبحانه وتعالى العالم بجميع أعمالهم خيرها وشرها، لا يخفي عليه منها خافية.

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء].

١٦ ـ هلاك البلاد بمعاصي العباد ... والمعاصي مواريث.

* وإذا قدر الله الهلاك لقرية جعل إفساد المترفين فيها سببا لهلاكها وتدميرها.. وتلك سنة الله في المفسدين.

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء].

والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الذين يتوفر لديهم المال والخدم وينعمون بالراحة ، حتى ترتفع نفوسهم في الفسق والفجور ، ويستهترون بالقيم والمبادئ والكرامات في الأعراض والحرمات .. فإذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فسادا ، ونشروا الفاحشة وأشاعوها ، وأنقصوا المكيال والميزان ، ومنعوا زكاة الأموال، وارخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ...

فنقضوا عهد الله وعهد رسوله ﷺ ، وامتنعت أئمتهم أن تحكم بكتاب الله .. فاختلط الحق بالباطل ، والطيب بالخبيث ، وفسدت أمور الجماعة.. فلا يأمن أحد على نفسه ، ولا يقف أحد عند حده ، واختلت الموازين .. فإذا هو الفساد في الأرض أصاب الخلق في الأخلاق والأرزاق ، وهلكت البلاد بمعاصي العباد .

وتلك السنة قد مضت بهلاك الأولين من بعد نوح عليه السلام قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل.

والمعاصي مواريث .. فكل معصية ميراث عن أمة من الأمم التي أهلكها الله.

.. اللوطية ميراث عن قوم لوط ... وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث عن قوم شعيب .. والعلو في الأرض بالفساد ميراث عن قوم فرعون والتكبر والتجبر ميراث قوم هود .... وكلما فشت الذنوب في أمة من الأمم انتهت بها إلي ذلك المصير... ذلك ما أخبرنا به الخبير البصير .

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : يا معشر المهاجرين .. خصال خمس إن ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن .

لم تظهر الفاحشة[١] في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع [٢] التي لم تكن في أسلافهم.

ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين[٣] وشدة المؤنة وجور السلطان .

ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر[٤] من السماء ولولا البهائم لم يمطروا .

---

(١) الفاحشة (أي الزنا) .

(٢) الأوجاع (أي الأمراض) .

(٣) السنين (أي الفقر) .

(٤)القطر (أي المطر) .

ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدو من غيرهم فيأخذ بعض ما في أيديهم .. وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم [(١)] .

ولو كان في هذه القرون من ينهي عن الفساد في الأرض ويعيد الظالمين عن ظلمهم ما أصيبت بالهلاك والدمار .

قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [هود].

١٧ ـ الرسالة قبل الأخيرة .

ثم تأتي الرسالة قبل الأخيرة .. الرسالة التي سبقت رسالة الإسلام ، وهي رسالة عيسى عليه السلام آخر أنبياء بني إسرائيل .. بشرت به الملائكة أمه مريم قبل خلقه في بطنها .

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ [آل عمران] .

وعيسى عبد من عباد الله خلقه الله وصوره في الرحم كما صور غيره من المخلوقات .. خلقه الله من غير أب كما خلق أدم من غير أب ولا أم وقال له كن ـ فكان .

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [آل عمران] .

وقد بين الله سبحانه وتعالى أصل ميلاد أمه مريم .. وكيف كان من أمرها وكيف حملت بولدها عيسى عليه السلام في « سورة مريم » ـ ولما كانت هذه كلها أمور غيبية أنبأنا الله عنها في كتابه ولا يعلم تأويلها إلا الله ـ فلا طائل وراء البحث فيها ـ وعلينا الإيمان بها ، وأن نتلقاها بالتصديق .

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [النساء] .

يتكلم الوليد في المهد ليبرئ ساحة أمه العذراء القديسة الطاهرة العفيفة، والتي وهبتها أمها وهي في بطنها لخدمة المعبد ..أنطقه الله في المهد كما تنطق الجوارح يوم القيامة للرد

---

(١) أي جعل حربهم بينهم ـ والحديث رواه ابن ماجة والبزار والبيهقي فقه السنة ١/ ٣٣٢ .

على اليهود عليهم لعنة الله الذين لم يتورعوا في أن يلصقوا الشبهات بمريم الطاهرة ـ قبحهم الله .

أخبر عيسى وهو في المهد بما قضى من أمره وبما هو كائن إلى أن يموت ، وأعلن عبوديته لله ، فهو ليس ابنه ، وليس إلها ، وليس هو ثالث ثلاثة ... يعلن أن الله جعله نبيا ، لا ولدا ولا شريكا ، وبارك فيه ، وأوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته ، والبر بوالدته ، والتواضع مع عشيرته ، وإنه يموت ويبعث ، وقد قدر الله له السلام والأمان يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا .

قال تعالى : ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم] .

وكان واجبا على النصارى أن يعتقدوا أنه عبد الله ورسوله ، وابن أمته العذراء البتول التي أحصنت فرجها فبعث الله الملك جبريل إليها فنفخ فيها عن أمر الله نفخة حملت منها بولدها عيسى عليه السلام ، وأضيفت إليه روح الله تشريفا لها وتكريما .

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم] .

١٨ ـ ميراث النصارى :

* ولكن طائفة منهم جاهلة زعموا أن المسيح هو الله وطائفة أخري قالت هو ابن الله والثالثة قالت هو ثالث ثلاثة وهم الذات المقدسة وعيسى ومريم ـ لعنهم الله قد زعموا أن لله ولداً أو شريكا .

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة] .

فأخبر الله تعالى عن كفرهم وجهلهم وبين أن الله هو الخالق القادر على كل شيء المتصرف في كل شيء وأنه رب كل شيء ومليكه وإلهه .

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [المائدة].

حكم الله تعالي بكفرهم شرعا وقدرا فقد صدر منهم ذلك مع أن الرسول إليهم هو عيسى قد بين لهم أنه عبد مخلوق داع إلى عبادة الله وحده لا شريك له وتوعدهم بالنار والخزي والهوان والعار على خلاف ذلك (١).

١٩ ـ محمد ﷺ في التوراة والإنجيل .

ولما انتهت النبوة في بني إسرائيل إلى عيسى عليه السلام قام فيهم خطيبا فأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم وأنها بعده في النبي العربي الأمي خاتم الأنبياء على الإطلاق أحمد وهو محمد ابن عبد المطلب من بني هاشم الذي هو من سلالة إسماعيل ابن إبراهيم الخليل عليه السلام.

«ورد ذكر النبي ﷺ **في التوراة والإنجيل**» .

يقول تبارك وتعالى :

﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف].

وهذه صفة رسول الله ﷺ في كتب الأنبياء بشروا أممهم ببعثته وأمروهم بمتابعته ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم .

عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو فقلت أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ : قال أجل والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن (٢) .

---

(١) البداية لابن كثير / ٤٦٦ .

(٢) الشيخ محمد الصابوني (النبوة والأنبياء ٢١٦) ابن كثير (٢ / ٢٥٣) القرطبي (٤/ ٢٨٢٨) .

« يا أيها النبيّ إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وحرزا للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، إسمك المتوكل .. ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا تدفع بالسيئة السيئة ولكن تعفو وتغفر ولن يقبضه الله حتي يقيم به الملة العوجاء بأن يقول لا إله إلا الله ، ويفتح به قلوبا غلفا ، وأذانا صما ، وأعيننا عميا ».. قال عطاء : ثم لقيت كعبا فسألته عن ذلك فما اختلف حرفا ، إلا أن كعبا قال بلغته «قلوبا غلوفيا وآذانا صموميا و أعيننا عموميا » .

والأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب وذلك من أعظم دلائل نبوته ﷺ .

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف] .

مصدقا لما تقدمني من التوراة التي أنزلت على موسى .

وروي أن النبي ﷺ قال : إسمي في التوراة أحيد لأني أحيد أمتي عن النار ، وأسمي في الزبور الماحي محا الله بي عبدة الأوثان ، وإسمي في الإنجيل أحمد ، واسمي في القرآن محمد لأني محمود في أهل السماوات والأرض .. وفي الصحيح لي خمسة أسماء..أنا محمد وأحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي تحشر الناس علي قدمي وأنا العاقب [١] .

وقد قرئ القرآن على اليهود والنصارى في الجزيرة العربية وفيه .

﴿النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف] .

وأقر بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام بهذه الحقيقة التي كانوا يتواصون بكتمها ، كما أنه ثابت من الروايات التاريخية أن اليهود كانوا ينتظرون مبعث نبي قد أظلهم زمانه .

ولقد وقف بنو إسرائيل في وجه الدين الجديد وقفة العداء والكيد والتضليل ، وحاربوه بشى الوسائل والطرق وازداد كيدهم لهذا الدين الذي قدر الله تعالى أن يظهره على الدين كله ، وأن يكون هو الدين الأخير [٢] .

---

(١) القرطبي الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٦٨٠٨ .

(٢) ظلال القرآن للشيخ سيد قطب ٦ / ٣٥٥٧ .

قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الصف] .

ومن أشد ظلما وعدوانا ممن اختلق على الله الكذب بقوله عن النبي ﷺ إنه ساحر ، وما جاء به سحر .. إذ دعا إلى الدخول في الإسلام .

ومن أشد ظلما من هؤلاء الذين يفترون علي الله الكذب ويختلقون الباطل ويفترون فيه في كل جيل من الأجيال ـ هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم ولن يوفقهم الله لإصابة الحق الذي يريدون إبطاله ـ والله متم دينه وناصر رسوله ولو كره الكافرون .

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف] .

وقد أخبر الله تعالي أنه سبحانه يسأل عيسى ابن مريم يوم القيامة على سبيل الإكرام له، والتقريع والتوبيخ لعابديه .

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة] .

والآيات واضحة تفسر نفسها وتثبت وجودها وتؤكد أمرها بأن كل شيء بيد الله وحده ، وهو المعبود وحده .. وعيسى عليه السلام عبد لله من عباده ... فمن كذب وافتري وزعم أنه ابن الله أو أنه الله أو أنه شريكه فقد أشرك ـ تعالى الله عما يقولون قال عيسى :

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة] .

ولم يقل فإنك أنت الغفور الرحيم .. فقد أسند الأمر لله .

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قام بهذه الآية الكريمة ليلة حتى أصبح ، وقال إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله تعالى لمن لا يشرك بالله شيئا [1] .

٢٠ـ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين .

وقد أخبر الله تعالى عن ملإ بني إسرائيل فيما هموا به من الفتك بعيسى عليه السلام وإرادته بالسوء والصلب حتى تمالؤوا عليه ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان وكان كافرا أن هنا رجلا

(١) رواه الأمام أحمد (البداية لابن كثير ٤٦٧) .

يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك ويفسد الرعايا ويفرق بين الأب وابنه .. إلى غير ذلك مما تقلدوه في رقابهم ورموه به من الكذب ، وأنه ولد زنية ـ حتى استثاروا غضب الملك فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه وينكل به .. فأحتال كفار بني إسرائيل علي الفتك بعيسى وقتله .. ومكروا، ومكر الله .. حيث القي شبه عيسى على رجل ممن كان معه في المنزل ، فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به نجاه الله تعالى من بينهم ورفعه من روزنة ذلك البيت إلى السماء حيا ... فلما دخل أولئك اعتقدوا الرجل الذي القي الله عليه شبهه أنه عيسى فأخذوه وأهانوه وصلبوه ، ووضعوا على رأسه الشوك ، وكان هذا من مكر الله بهم أن نجي نبيه ورفعه من بين أظهرهم وتركهم في ضلالهم يعمهون ، وأسكن الله في قلوبهم القسوة .. وعناد الحق ملازما لهم ، وأورثهم الله ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد .. لهذا قال سبحانه وتعالى ..

﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران] .

وسينزل عيسى في آخر الزمان كما وردت به الأحاديث الصحيحة الصريحة .. سينزل قبل يوم القيامة ويدعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له [1] .

ـ ميراث اللعنة .

لقد أوجب الله عليهم اللعنة والطرد والإبعاد .. فقد نقضوا المواثيق والعهود التي أخذت عليهم ، وكفروا بآيات الله وحججه وبراهينه ، واجترءوا على أنبياء الله وقتلوا منهم ما قتلوا ، وادعوا العلم ، وتمرنت قلوبهم علي الكفر والطغيان وقلة الإيمان ، ورموا مريم الطاهرة بالزنا فجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك .. عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة .. وادعوا قتل المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وعيسى هو الذي جاءهم بالبينات والهدي يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ، ويصور من الطين طائرا ثم ينفخ فيه فيكون طائرا يشاهد طيرانه بإذن الله ... إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمه الله بها وأجراها على يديه .. ومع هذا كذبوه وخالفوه وسعوا في أذاه وتبجحوا معلنين أنهم صلبوه .

وهذا كله امتحان الله لعباده لما له في ذلك من الحكمة البالغة ، وقد أوضح الله الأمر وجلاه وبينه وأظهره في القرآن الكريم الذي أنزله على رسوله الكريم المؤيد بالمعجزات والبينات والدلائل الواضحات ..

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ / ٣٦٥ - م الطبري ١ / ١٠٦ .

فقال تعالى وهو أصدق القائلين ورب العالمين المطلع علي السرائر والضمائر الذي يعلم السر في السماوات والأرض ، العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون .

قال سبحانه : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء] .

فإذا نزل عيسى في آخر الزمان كما وردت به الأحاديث الصحيحة الصريحة تصير الملل كلها واحدة .. هي ملة الإسلام الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام ،ولا يبقي أحد من أهل الكتاب إلا أمن به ، وإنه لحي الآن عند الله ، فقد رفعه الله وهو باعثه قبل يوم القيامة .. يؤمن به البار والفاجر ، ويؤمن به كل صاحب كتاب حتى لو ضربت عنقه لم تخرج نفسه حتى يؤمن به .

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء] .

وليكذب اليهود والنصارى الذين تباينت أقوالهم فيه وتصادمت وتناقضت وخلت عن الحق ، وأذاعوا فيه ما ليس فيه ، ورفعوه عن مقام النبوة إلى مقام الربوبية .

« تعالي الله عما يقولون علوا كبيرا ، وتنزه سبحانه وتقدس لا إله إلا هو »[1] هكذا كانت الحقيقة .

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء].

٢١ – اليهود والنصارى قبل رسالة الإسلام

وسبقت رسالة الإسلام فترات طويلة ازدادت الأمور فيها من السيئ إلى الأسوأ اليهود والنصارى يدّعون أنهم أبناء الله .

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة] .

---

(١) تفسير ابن كثير ١ (٥٧٧ – ٥٧٨) .

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [التوبة].

وغلا قوم في شأن المسيح حتى جعلوه ابناً لله أو ثالث ثلاثة ، وقال بعضهم إن الله هو المسيح ابن مريم .. وغلا قوم في أحبارهم ورهبانهم فاتخذوهم أرباباً من دون الله .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ [المائدة].

وهكذا طوائف من مشركي العرب زعموا لجهلهم أن الملائكة بنات الله .

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الصافات].

ودون تعليق أو بيان كشفت الآيات الكريمة بنفسها عن عقائد اليهود والنصارى في نظرات مختارة من آيات القرآن الكثيرة والتي تتحدث عن كفرهم وضلالهم وبعدهم عن كتاب ربهم .

وهنا نرد على الآيات بالآيات المختارة أيضاً من آيات القرآن الكثيرة التي تؤكد بالدعائم والحقائق والأدلة والحجج والبراهين ملكية الله وحده لما في السماوات وما في الأرض ، وأنه سبحانه وتعالى المستحق بالتوحيد والعبادة وما دونه شرك وكفر يقود أصحابه إلى السعير .

﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ ﴾ [الزُّمَر].

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾ [الإسراء].

وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : يقول الله تعالى : شتمني أبن آدم ولم يكن له ذلك ـ يزعم أن لي ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوا أحد .

وفي الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: لا أحد اصبر على أذي سمعه من الله .... أنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم [١] .

٢٢ـ وأشرقت الأرض بنور ربها .

هكذا كانت مواريث الأمم الغابرة منذ أقدم العصور بدأت بأول شرك في بني آدم في قوم نوح الذين عبدوا ودا وسواع ويغوث ويعوق ونسرا وقوم عاد الذين عبدوا الأصنام بعد الطوفان، وثمود الذين عبدوا الأوثان ، وقوم لوط الذين خرجوا عن الفطرة وفعلوا الفاحشة ، وقوم فرعون الذين عبدوا الطاغية فرعون ، والمصريون الذين عبدوا العجل في غياب موسى [٢] .

ميراث مظلم أسود على أرض الدنيا ... كله شرك وكفر وظلم واستبداد وفساد وطغيان .

الماجوس عبدوا النار ، والنصارى عبدوا المسيح وأمه ، وعبدوا الأحبار والرهبان من دون الله .

الهنود لديهم ثلاثمائة وثلاثون مليون إلـه ، وهناك الآن منهم مالا يزال يعبد البقر .... « كفر وشرك ووثنية وعبودية خلق الله لخلق الله ، واستهزاء برسل الله » ومواريث أخري تناقلتها القرون والأجيال قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل ... كل قرن يستوفي أجله ثم يمضي ويأتي آخرون ، وكلهم يكذبون ويعصون ويفسدون ..... وإنهم في النهاية لميتون ومحاسبون ... كلهم هالكون وإلي الله راجعون.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [مريم] .

روى الأمام مسلم عن رسول الله ﷺ .. إن الله نظرَ إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب [٣] ..... ذلك لما آل إليه حال الدنيا من الشرور والانحطاط والشقاق والخراب الذي عم أرجاء الأرض ، نسى الإنسان خالقه ، وفقد رشده ، وغرق العالم كله في الشرك إلا بقايا من الحنفاء على ملة إبراهيم ، وبقايا من أهل الكتاب الذين سلموا من التحريفات الوثنية ... هذه البقايا ظلت مستعصية على الشرك رغم طوفان الكفر الذي ملأ كل البقاع .

---

(١) البداية لأبن كثير ٤٦٨ .

(٢) ورد بتفسير ابن كثير ٣/ ٣٤٥ أن أصحاب الأيكة هم أهل مدين ـ والأيكة شجرة كانوا يعبدونها .

(٣) عن عياض بن حمار المجاشعي (رواه الإمام مسلم في صحيحه) ، ومن حديث طويل في مسند الإمام أحمد .

لقد انحدرت الإنسانية ، وانسحب رجال الدين من ميدان الحياة ولاذوا بالأديرة والكنائس والخلوات فراراً بدينهم من الفتن .

ضاعت الأخلاق ، وذهبت الفضيلة وساد الظلم ، وانقطعت الرحمة ، ووضع العلم علي الرفوف وأصحابه مهانون .

انعدمت القيم والمبادئ وفسدت الفطرة ... فاختلت العقائد وفسدت الذمم .

وكم في التاريخ من الأحداث المؤلمة بجهل الإنسان وذله وفساد عقيدته ....أجيال وأجيال لا يتغير أحدهم ولا يتعظ بما حدث للذين من قبلهم ورثوا غضب الله ... وجعلهم الله أحاديث تتناقلها القرون بعد أن أصابهم بأسه ونكاله وعقابه .

﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون].

.... فضل الناس رشادهم ، وجحدت قلوبهم وعقولهم ، وصاروا أصناما تعبد أصناما ، وأحجازاً تقدس أحجارا واتخذ أهل كل دار في دارهم صنما يتمسح به الرجل إذا خرج للسفر ـ فذلك آخر ما يصنعه قبل سفره ، ويتمسح به حين قدومه ـ فذلك أول ما يبدأ به عن دخول داره ... واتخذت العرب مع الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة يطوفون بها وينحرون عندها وهم يعلمون أن الكعبة هي البيت وهي المسجد .... يعبدون حجارة صنعوها بأيديهم ، تقاليدهم تدين للقبيلة ميراثاً من الآباء الذين جعلوها موازين لتصرفاتهم وأخلاقياتهم ... لقد دانت أقوامهم لميراث آبائهم من الكفر والفسوق والفجور والجاهلية .

وفي غيبة التوحيد طوي الظلام سواده علي القلوب والعقول ففقد الناس نعمة الآمان والسكينة ، والأمن والطمأنينة ـ والعرب يشنون الغارات ويسفكون الدماء ويقطعون السبيل لنهب التجارات ... وساد بين القبائل الفتك والاغتيال في ظل وثنية كفرت بالعقل ونسيت الخالق .

وأنتهز الأقوياء فرص الجهالة والضلالة ـ فاستعلوا علي الشعوب ، واستبدوا بالعقول والقلوب ، وسخروا لشهواتهم ومنافعهم خيرات الدنيا وقوي البشر ... فإذا أكثر الناس عبيد للقلة ، وإذا القلة طبقات يسخر بعضها بعضا . وكل هؤلاء غرقى في الضلالة ، وأسري للشهوات والأهواء وعبيد للباطل ، وأعداء لكل الإنسانية ولكل القيم والمبادئ والأخلاق والفضائل .

حتى ضجت الأرض مما تنوء به من الشر والبغي والظلم والطغيان والاستبداد والهمجية والفوضى .... ضجت من الخيانة والفساد والشرك والتفريط في حق الله تعالى وحق عباده .

فسدت العقائد ، وانهارت القيم ، وانعدم الحياء .... لقد ورث المتكبرون الطاغون كل شيء فاسد من تلك الأمم الفاسدة الغابرة .

وبينما الناس على هذا الحال حائرين بائسين يائسين من حياتهم أمام هذا الظلم والاستعباد .... بينما هم حيارى تشملهم الفوضى والطغيان .

أراد الله تبارك وتعالى اللطف بعبادة ، والرحمة بخلقه .. فأذن سبحانه وتعالي أن يسوق الهداية إلى الأنام ... فبعث إلى الدنيا كلها محمدا عليه الصلاة والسلام بالهدى ودين الحق مبشراً ونذيرا وداعيا إلي الله بإذنه وسراجاً منيرا .

مبعوثا إلى الناس جميعا من ربّ العالمين ليبلغ رسالة السماء الأخيرة للبشر حتى تقوم الساعة، ويهدي الناس جميعاً إلي طاعة الله وحده، وعبادة الله وحده، إلى دين الله وحده ـ إنه الإسلام دين الله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأحزاب] .

obeikandl.com